



شرح

منظومة أحسن الأخلاق

شرح

محمد بن سعيد ابن طوق المري

شرح منظومة أحسن الأخلاق

شرح

محمد بن سعيد ابن طوق المري



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منظومة أحسن الأخلاق

- | | | |
|--|------|---|
| عِبَادَهُ الْمُقَرَّرِينَ الْأَدَبَا | (١) | الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ وَهَبَا |
| عَلَى نَبِيَّنَا عَظِيمِ الْخُلُقِ | (٢) | ثُمَّ الصَّلَاةُ بِالسَّلَامِ تَلْتَقِي |
| يَرْقَى بِهَا صَاحِبُهَا الْمَرَاقي | (٣) | وَبَعْدُ هَاكَ أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ |
| بِتَرْكِ الْإِثْمِ وَيَفْعَلِ مَا وَجِبَ | (٤) | فَأَوَّلًا رَاعِ مَعَ اللَّهِ الْأَدَبَ |
| حُبًّا وَتَوْحِيدًا وَمَنْ خَافَ نَجَا | (٥) | وَحُسْنَ ظَنٍّ وَتَوَكُّلٍ رَجَا |
| قَدَّمَ عَلَى كُلِّ الْوَرَى مَحَبَّتَهُ | (٦) | وَقَرَّ نَبِيَّهْ وَعَظَّمْ سُنَّتَهُ |
| تَفَرَّ وَصَلْ أَيَا بُنَيَّ الرَّحْمَا | (٧) | وَبَرِّ وَالِدَيْكَ وَلْتُطْعُمَهَا |
| وَسَاعِدِ الضَّعِيفَ وَالْفَقِيرَا | (٨) | بَجَلٍ كَبِيرًا وَارْحَمْ الصَّغِيرَا |
| وَشَاكِرًا وَفَطْنًا حَلِيمَا | (٩) | وَكُنْ شُجَاعًا صَابِرًا كَرِيمَا |
| وَكُنْ أَمِينًا وَتَوَاضَعْ وَاصْدُقْ | (١٠) | وَذَا أَنَاةٍ وَحَيَاءٍ وَارْفُوقِ |
| وَالْعَفْوِ وَالْوَفَاءِ وَالْإِثْقَانِ | (١١) | تَحَلَّ بِالْعَدْلِ وَبِالْإِحْسَانِ |
| أَحَبُّ كُلِّ مُسْلِمٍ كُنْ نَاصِحَا | (١٢) | صُنِ اللِّسَانَ وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَا |
| وَكُنْ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَاةِ | (١٣) | تَقَبَّلِ النَّصْحَ مِنَ الثَّقَاتِ |



- وَوَقَّتَكَ أَشْغَلُهُ بِالْإِنْتِفَاعِ (١٤) وَالْمَالَ فَاحْفَظْهُ عَنِ الضَّيَاعِ
- بِهَمِّهِ تَعَلَّمِ الْمُفِيدَا (١٥) وَطَالِعِ الْكُتُبَ تَنَلْ مَزِيدَا
- وَاحْتَرِمِ الْكِتَابَ وَالْمُعَلِّمَا (١٦) وَأَكْرِمْ مَنْ مَا اسْتَطَعْتَ الْعُلَمَا
- أَقْبِلْ وَأَنْصِتَنَّ لِلْمُحَدِّثِ (١٧) وَقَدِّمِ الْأَكْبَرَ فِي التَّحَدُّثِ
- بِالْخَيْرِ فَانْطِقَنَّ وَإِلَّا فَاصْمُتِ (١٨) وَقَبْلَ نَقْلِ خَبَرٍ تَثَبَّتِ
- وَقَدِّمَنَّ صَلَاةَ الْإِسْتِخَارَةِ (١٩) إِذَا هَمَمْتَ ثُمَّ الْإِسْتِشَارَةَ
- وَأَتَّبِعِ الْخَطَا بِاعْتِذَارِ (٢٠) وَأَتَّبِعِ الذُّنْبَ بِالْإِسْتِغْفَارِ
- أَفْشِ السَّلَامَ صَاحِبِ الْأَخْيَارَا (٢١) لَا تُؤْذِ إِنْسَانًا أَخْصُ الْجَارَا
- وَرَاعِ آدَابَ بُيُوتِ النَّاسِ (٢٢) كَغَضِّ طَرْفٍ وَكَالِاسْتِئْذَانِ
- وَأَكْرِمْ الضَّيْفَ وَكُنْ مُبْتَسِمًا (٢٣) انْصُرْ أَخَاكَ أَثَرَنَّ الْمُسْلِمَا
- عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُ كُنْ عَفِيفَا (٢٤) حَافِظُ عَلَى الصَّحَّةِ كُنْ نَظِيفَا
- حَافِظُ عَلَى الْأَذْكَارِ فِي الصَّبَاحِ (٢٥) وَفِي الْمَسَاءِ تَحْظُ بِالْفَلَاحِ
- إِذَا عَطَسْتَ فَاحْمَدَنَّ اللَّهَ (٢٦) وَشَمِّنْ مَنْ حَمِدَ الْإِلَهَ
- عَلَى الْيَمِينِ طَاهِرًا نَمَّ بَاكِرَا (٢٧) وَكُنْ لِأَذْكَارِ الْمَنَامِ ذَاكِرَا
- مِمَّا يَلِي كُلِّ الْيَمِينِ سَمِّ (٢٨) فِي أَوَّلِ ثُمَّ احْمَدَنَّ فِي الْخَتَمِ
- أَحْمَدُهُ جَلَّ مُصَلِّيًّا عَلَى (٢٩) نَبِيِّنَا يَا رَبِّ نَظْمِي فَأَقْبَلَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين^١.

أَمَّا بَعْدُ فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا لِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا هُوَ، وَأَنْ يَصْرِفَ عَنَا سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنَا سَيِّئَهَا إِلَّا هُوَ.

أَدَبُ الْمَرْءِ وَحُسْنُ خُلُقِهِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَمَا اسْتُجْلِبَتِ الْخَيْرَاتُ بِمِثْلِ الْأَدَبِ الْكَرِيمِ، وَالْخُلُقِ الْقَوِيمِ، وَكَلَّمَا كَانَ الْمَرْءُ أَحْسَنَ خُلُقًا كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَقْرَبَ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَلَّمَا كَانَ أَسْوَأَ خُلُقًا كَانَ أْبَعْدَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا».

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ حُسْنَ الْخُلُقِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقَرَنَهُ بِالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ وَصِيَّةٍ، سَأَلَ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسُ الْجَنَّةَ فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ».

وَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ صَاحِبَ الْخُلُقِ الْحَسَنِ يَبْلُغُ بِهِ حُسْنَ خُلُقِهِ أَنْ يَكُونَ فِي دَرَجَةٍ مِنْ يَقُومُ

^١ أصل هذه الأوراق شرح صوتي على منظومة أحسن الأخلاق كان في شهر الله المحرم عام ١٤٤٦، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها فراجعها وأعاد صياغة مواضع منها بما يناسب الكتاب المقروء (رابط الشرح الصوتي) (رابط آخر للشرح الصوتي) (رابط الشرح الصوتي على اليوتيوب).

الليل ويصوم النهار، قال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ». وهذا الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وقد أخبرنا النبي ﷺ أنه إنما بعث ليدعو الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويُنذِرهم سيئها، قال ﷺ: «إِنَّمَا بَعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»، وفي رواية: «لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

ولعظيم منزلة حسن الخلق، كان من دعائه ﷺ أن يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» وكان يقول: «اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَدْوَاءِ» وكان يقول: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خُلُقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي».

فما أحوجنا إلى دراسة أخلاق الإسلام الرفيعة وآدابه الكريمة والتحلي بها، فإن المسلم إذا وُفِّقَ إلى ذلك واستعان بالله على تحقيقها نال خيراً عظيماً وفضلاً عميماً في الدنيا والآخرة.

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الْأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

خصوصاً طلبة العلم.

وَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلُ تُعْلِيهِ كَانَتْ مَطِيَّةَ الْإِخْفَاقِ
لَا تَحْسِبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ بِخَلَاقِ

وهذه مدارس لمنظومة أحسن الأخلاق للشيخ عامر بهجت حفظه الله ووفقه لكل خير، وهي منظومة عذبة اللفظ، حسنة السبك، رائقة المعنى، وما فيها من الأخلاق الفاضلة يحتاج إليه الجميع من صغير وكبير.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ وَهَبَا (١) عِبَادَهُ الْمُقَرَّبِينَ الْأَدَبَا
ثُمَّ الصَّلَاةَ بِالسَّلَامِ تَلْتَقِي (٢) عَلَى نَبِيِّنَا عَظِيمِ الْخُلُقِ

ابتدأ الناظم - وفقه الله - بحمد الله سبحانه وتعالى اقتداء بكتاب الله تعالى فإن أول سُورِهِ سورة الحمد، وبسُنَّةِ النبي ﷺ فإنه كان يستفتح خُطْبَهُ بالحمد، وروي في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ» والاستدلال به مبني على قول من حسنه بتعدد طرقه، كابن الصلاح والنووي.

والحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حُبِّهِ وإجلالِهِ وتعظيمِهِ. قاله ابن القيم في بدائع الفوائد.

ثم ثنَّى بالصلاة والسلام على نبينا ﷺ، وصلاة الله على عبده فسرّها أبو العالية بثناؤه عليه عند الملائكة، علقه البخاري في صحيحه.

والسَّلَامُ المقصودُ به النزاهةُ مِنَ النقائص والآفات.

فبالصلاة حصول المطلوب، وبالسَّلام زوال المرهوب.

وقد جمع بين الصلاة والسلام، فلم يقتصر على أحدهما امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(عَلَى نَبِيِّنَا عَظِيمِ الْخُلُقِ) كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

والابتداء بما بدأ به الناظم من الحمدلة والصلاة والسلام هو من آداب التصنيف، والإجماع العملي من المصنِّفين عليه.

وقد أشعر الناظم في أول نظمه بمقصوده، وأنَّ منظومته في الأدب وحسن الخلق، وذلك في قوله: (الَّذِي قَدْ وَهَبَا عِبَادَهُ الْمُقَرَّبِينَ الْأَدَبَا)، وقوله: (عَلَى نَبِيِّنَا عَظِيمِ

(الْخُلُقُ) وهو المسمى في البلاغة ببراعة الاستهلال.

والأدب: "استعمال الخلق الجميل" قاله ابن القيم في مدارج السالكين.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: هو "استعمال ما يُحَمَّد قولاً وفِعْلاً".

وقوله: **(الَّذِي قَدْ وَهَبَا عِبَادَهُ الْمُقَرَّبِينَ الْأَدَبَا)** فيه إشارة إلى أن هذه الأخلاق

والآداب هباتٌ من الله وتَفَضُّلٌ منه سبحانه على من شاء من عباده، وقد قال

طاوس بن كيسان: "إِنَّ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ مَنَائِحُ يَمْنَحُهَا اللَّهُ -عز وجل- من يشاء من

عباده؛ فإذا أَرَادَ اللَّهُ -عز وجل- بعبد خيراً، منحه منها خلقاً صالحاً".

وقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ

بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ" فالذي يعطي الأخلاق هو الذي يعطي الأرزاق، فكما أنه يُطلب

منك في باب اكتساب الرزق أمران: الأول: السعي في طلب الرزق. والآخر:

التوكلُ على الله سبحانه وتعالى في تيسيره، واللجوءُ إليه سبحانه في ذلك. فكَذلك

يطلب منك في اكتساب الأخلاق هذان الأمران: الأول: السعي في الأخلاق

الحسنة، ومجاهدة النفس على التحقق بها. والآخر: اللجوء إلى الله -سبحانه

وتعالى- في أن يَمُنَّ عليك بالأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة.

وفي هذا إشارةٌ إلى الجواب عن سؤال مشهور، وهو هل الأخلاق الحسنة طبيعة

وجِبَلَةٌ فهي هبة من الله تعالى ليست من عمل العبد، أو هي مكتسبة يكتسبها العبد

ويسعى في تحصيلها؟

الجواب: منها ما هو طبيعة وجبلة، ومنها ما هو مكتسب.

منها ما هو طبيعة وجبلة بدليل حديث أشج عبد القيس قال له النبي ﷺ: **«إِنَّ فِيكَ**

خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمَ اللَّهُ جَبَلَنِي

عليهما؟ قال: بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عليهما، قال: الحمدُ لله الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُجِبُّهُما اللهُ ورسولُهُ.

ومنها ما هو مكتسب بدليل قوله - صلى الله عليه وسلم - «إِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ» والتَّحَلُّمُ: تَكَلُّفُ الْحِلْمِ.

وَبَعْدُ هَاكَ أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ (٣) يَرْقَى بِهَا صَاحِبُهَا الْمَرَاقِي

(وَبَعْدُ) أي بعد ما تقدم من حمد الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ.

(هَآكَ) اسم فعل أمر بمعنى خذ.

(أَحْسَنَ الْأَخْلَاقِ) أي خذ منظومة مشتملة على بيان أحسن الأخلاق.

(يَرْقَى بِهَا صَاحِبُهَا الْمَرَاقِي) يعني أن الأخلاق ترفع صاحبها إلى الدرجات العالية في الدُّنيا والآخرة، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب الكريم والخلق الحسن، وقد سبق في أول المجلس ذكر شيء مما ورد في حسن الخلق من الفضل العظيم.

فَأَوَّلًا رَاعَ مَعَ اللَّهِ الْأَدَبَ (٤) بَتَرَكَ الْإِثْمَ وَبِفَعْلٍ مَا وَجَبَ

ابتدأ - وفقه الله - بأشرف أخلاق العبد، وهو الأدب مع الله - جل جلاله - الذي ما بالعبد من نعمة إلا وهي منه سبحانه وتعالى.

(بَتَرَكَ الْإِثْمَ) بترك المحرمات ما ظهر منها وما بطن، قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ

الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:

.[١٢٠]

(وَبِفَعْلٍ مَا وَجَبَ) بفعل الواجبات، قال ﷺ: «ما أَمَرْتُكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَاتُوا مِنْهُ مَا

استطعتم وما نهيتكم من شيء فاجتنبوه».

ثم ذكر في البيت الذي بعده شيئاً من الأدب مع الله سبحانه وتعالى، فقال:

وَحُسْنِ ظَنٍّ وَتَوَكُّلٍ رَجَا (هـ) حُبٍّ وَتَوْحِيدٍ وَمَنْ خَافَ نَجَا

(وَحُسْنِ ظَنٍّ) من الأدب مع الله - سبحانه وتعالى - حسن الظن به بأن يكون العبدُ

قويّ اليقين بما وعد الله به عبادَه من سعة كرمه ورحمته، قال ﷺ: «يقولُ اللهُ

تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي» فالله سبحانه وتعالى يُعامل عبده على حسب ما يظنه

العبد بالله من خير أو شرّ، فمن ظن بالله خيراً فله الخير، ومن ظن بالله شراً فله ما

ظنه.

وقد قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ

شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَنَّهُ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ».

ومن ذلك أنه إذا دعا كان قوي اليقين بأن الله عز وجل سيُجيب دعاءه، فقد قال

سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّي أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ فَاعِلُهُ

ومن أراد أن يحسن ظنه بالله سبحانه وتعالى فليحسن العمل؛ لأنه لا يُوفَّق لحُسْنِ

الظن إلا من أحسن العمل، فالمؤمن يجمع بين إحسان العمل وحسن الظن، ولا

يجتمع إحسان الظن مع إساءة العمل أبداً.

(وَتَوَكُّلٍ) من الأدب مع الله سبحانه وتعالى التوكل عليه، بأن يصدق العبد في

اعتماده على الله سبحانه وتعالى في جلب المصالح ودفع المضارّ مع بذل

الأسباب، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن توكل على الله - سبحانه وتعالى - حصلت له الكفاية التامة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيهِ في صحته ورزقه وقُوَّتِهِ وقُوَّتِهِ وذريته وفي كل شيء.

وانظر إلى كفاية الله للمتوكل: إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كيف كانت العاقبة؟ ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

نبينا ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - حين قال لهم الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، كيف كانت العاقبة؟ ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

مؤمن آل فرعون حين كاد له قومه قال: ﴿فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤] تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ.

كيف كانت العاقبة؟ ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وقد قال النبي ﷺ: «إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلتُ على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذٍ: هُدِيَتْ، وَكُفِيَتْ، وَوُقِيَتْ، فَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فيقولُ له شيطانٌ آخرُ: كيفَ لكَ برجلٍ قد هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ». فمن

أراد الكفاية من الله سبحانه وتعالى فعليه بالتوكل عليه.

(رَجَا) مِن الأدب مع الله سبحانه وتعالى: رجاؤه.

وكيف لا يرجو العبد ربه وهو الذي وسعت رحمته كل شيء كما قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] هم المسرفون

على أنفسهم بالمعاصي ومع ذلك أضافهم إلى نفسه فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾،

ونهاهم عن القنوط من رحمته فقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وأخبرهم أنه

يغفر جميع الذنوب فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. بل قال الله سبحانه

وتعالى في الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وفي الذين قالوا: إن الله ثالث

ثلاثة قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[المائدة: ٧٤].

وقال في أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا

فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، قال الحسن البصري:

"انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة".

وقال النبي ﷺ للصحابة -رضي الله عنهم- في المرأة التي كانت تسعى تطلب

ولدها إذا وجدت صبياً في السبي أخذته وألصقته بطنها وأرضعته «أترون هذه

طارحة ولدها في النار؟» قالوا: لا والله، وهي تقدرُ على ألا تطرحه، فقال رسولُ الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا».

فهذه الأدلة تبث القلب على الإقبال على الله سبحانه وتعالى وحسن رجاءه،

وتبسّطُ الأملَ أمامَ العبدِ بسعةِ رحمةِ الله سبحانه وتعالى، فيتوب ويُحسِنُ العملَ مهما كانت ذنوبه، وقد كان السلف يُعْظِمُونَ رجاءَهُم.

قرأ رجلٌ عند يحيى بن معاذ قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] فبكى وقال: "إلهي، هذا رفك بمن يقول أنا الإله، فكيف رفك بمن يقول أنت الإله؟".

وقال سفيان الثوري: "ما أُحِبُّ أن حسابي جُعِلَ إلى والدَيّ، ربي خير لي من والدَيّ".

وقد مرض أعرابي فقيل له: "إنك تموت" فقال: "وأين أذهب؟" قالوا: "إلى الله عز وجل" قال: "فما كراحتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه".
(حُبٌّ) من الأدب مع الله سبحانه وتعالى محبته، وهذه المنزلة هي التي ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة.

محبة الله: تعلق القلب به جل جلاله، ومن هذا التعلق تنشأ جميع الأعمال الصالحة، فهي بمنزلة الرأس للطائر، والخوف والرجاء الجناحان. والمحبة رُوح الأعمال، متى خلا القلب منها كان العمل كالجسد الذي لا روح فيه.

وقد امتحن الله كُلَّ من ادّعى محبته بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فالصادق في محبته لله برهان صدقه طاعته لله واتباعه لرسوله ﷺ.

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ شَيْعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

والمحبة إذا رَسَخَتْ في قلب صاحبها لم يُرَدَّ شيئاً في دنياه إلا أن يقترب من الله، وأن يبذل حياته لدين الله، لا ينتظر من الناس جزاءً ولا شكوراً، يريد أجره وافيًا كاملاً في الآخرة غير منقوص، إذا نظرت إليه في نفع الخلق ونشر العلم فهو أكثرهم اجتهادًا، وإذا وجدته في المتعبدين فهو أكثرهم خشوعًا؛ لأن محبة الله استولت على قلبه، فهي التي تحركه إلى العمل، وقد كان حكيم بن حزام -رضي الله عنه- يقول وهو يطوف بالبيت: "لا إله إلا الله، نِعَمَ الرَّبُّ ونِعَمَ الإله، أُحِبُّه وأُخْشَاهُ" ويكررها.

وقال بعض السلف: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها" قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: "محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته".

وقال آخر: "والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برويته ومشاهدته".

وكان الفضيل بن عياض يقول: "ارحمني بحبي إياك، فليس شيء أحب إليّ منك".

(وَتَوْحِيدٍ) من الأدب مع الله سبحانه وتعالى: توحيدُه، وذلك بإفراده بالعبادة، فلا يجعل شيئاً من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى.

والتوحيد هو الغاية التي خلق الله لها الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهو دعوة جميع الرسل، بل هو الغاية من بعثهم ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد قضى الله وأمر به ووصى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وأمر عباده به ونهاهم عن ضده ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. وهو رأس الوصايا التي أوصى الله بها عباده ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. ولو قُدِّرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أوصى بوصية وختم عليها ما أوصى بغير ما أوصى به ربُّه، ورأس ذلك التوحيد، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ الآية».

وهو حقُّ الله على العباد كما في حديث معاذ -رضي الله عنه- قال: قال ﷺ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وللتوحيد فضائل عظيمة، فمن فَضِّلَ التوحيد: أن أهله لهم الأمن التام والهداية التامة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومن فضله: أن أهل التوحيد هم أهل الجنة، فمن مات على التوحيد دخل الجنة ولو عمل ما عمل، قال ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أي على ما كان عنده من صلاح أو فساد.

ومن فضل التوحيد: أنه سبب للتحريم عن النار، قال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ».

ومن فضل التوحيد: أَنَّهُ يَرْجُحُ بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ كَمَا فِي حَدِيثِ صَاحِبِ الْبَطَاقَةِ الَّذِي يُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا مِنَ الْمَعَاصِي، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ؛ «وَتُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، فَلَا يَنْثَقِلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ».

ومن فضل التوحيد: أَنَّهُ سَبَبٌ لَتَكْفِيرِ الذُّنُوبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خُطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا تُثَبِّتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

وهذه الفضائل هي بعض فضائل التوحيد، وإلا ففضل التوحيد مما تَعَجَّزَ عنه العبارة، فهو لُبُّ الدين وأساسه وقاعدته، وليس في دين الرسل ولا في كتب رَّبِّ الْعَالَمِينَ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَلَيْسَ هَذَا فَحَسَبَ بَلْ ثُمَّ فَضْلٌ خَاصٌّ لِمَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ بِاجْتِنَابِ الشَّرِكِ الْأَصْغَرِ وَالْبَدْعِ وَالْمَعَاصِي، وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَهَذَا فَضْلٌ زَائِدٌ عَنِ الْفَضَائِلِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ.

وَتَمَّ دَرَجَةٌ أَعْلَى، وَهِيَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ الْمُسْتَحَبِّ، بِأَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ مُتَوَجِّهًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِكَلِيَّتِهِ، مُعْرِضًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

(وَمَنْ خَافَ نَجَا) مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الْخَوْفُ مِنْهُ، وَهُوَ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْعُلْيَا. فَمَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى نَجَا مِنَ النَّارِ وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَظَفِرَ بِالْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه، وترحلُ الخوف من القلب علامةً على ترحلِ الإيمان، قال الله تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] أي خافت وفزعَت.

وهذا رسول الله ﷺ وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

وقال عبدالله بن الشَّخِير -رضي الله عنه-: «أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء» وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، كان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خوف الله وخشيته، وهذا عمر -رضي الله عنه- يُسمع نسيجه من آخر الصفوف وهو يصلي بالناس يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وعثمان -رضي الله عنه- كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبُلَّ لحيته، وابن عباس -رضي الله عنهما- كان تحت عينيه مثلُ الشراكِ البالي من الدموع، وقرأ تميم الداري -رضي الله عنه- ليلة سورة الجاثية فلما أتى على قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددُها ويبكي حتى أصبح، هكذا كانوا، وهكذا كان الصالحون بعدهم، كما قال ابن المبارك:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ فَيَسْفِرُ عَنْهُمْ وَهُمْ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ فَقَامُوا وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

هذه حالهم مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العمل، فينبغي أن يعرض العاقل نفسه على حالهم، وأن ينظر في تقصيره، وأن ينهض بهمته، ويَجِدَّ في الائتساء بهم لعله يصل إلى شيء من أحوالهم.

وهذا الخوف أمان لهم يوم الفزع الأكبر، كما قال الله تعالى في الحديث: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَجْمَعُ لِعِبَادِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنَّهُ هُوَ أَمْنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنَّهُ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّتْهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي».

ثم بعد أن ذكر الأدب مع الله تعالى، انتقل إلى الكلام عن الأدب مع رسول الله ﷺ، قال - وفقه الله -:

وَقَرَّ نَبِيِّهِ وَعَظَّمْ سُنَّتَهُ (٦) قَدَّمَ عَلَى كُلِّ الْوَرَى مَحَبَّتَهُ

هذه ثلاث من صور الأدب مع رسول الله ﷺ.

(وَقَرَّ نَبِيَّهُ) التوقير: التعظيم والتبجيل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا

وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:

٨-٩] تُعَزِّرُوهُ أي تُعَظِّمُوهُ، وَتُوَقِّرُوهُ أي تُجَلِّوهُ، ومن ذلك القيام بجميع حقوقه ﷺ.

(وَعَظَّمْ سُنَّتَهُ) بالمبادرة إلى امتثال سنته ﷺ، والتسليم والانقياد لها، وعدم

مخالفتها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ

يَكُونُوا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

[الأحزاب: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]،

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»، فمن

الأدب مع رسول الله ﷺ: تعظيم سنته، والمبادرة إلى امتثالها وعدم مخالفتها،

وقد قال الإمام مالك: السُّنَّةُ سفينةُ نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق.
وقال عبد الله بن مبارك: كنتُ عند مالكٍ وهو يُحدِّثنا حديثَ رسول الله ﷺ، فلدغته
عقرب ستَّ عشرةَ مرةً، ومالكٌ يتغير لونه ويَصْفَرُّ، ولا يقطع حديث رسول الله
ﷺ، فلما فرَغَ من المجلس وتفرَّقَ الناس، قلت: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك
عجباً. قال: نعم، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

وقد روى الإمام الشافعي مرةً حديثاً فقليل له: أتأخذ به؟ فغضب وقال: رأيتني
خرجت من كنيسة، أو عليّ زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً لا
أقول به!

وقال: متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به فأشهدكم أنَّ عقلي قد
ذهب.

وقد سأله رجلٌ مرةً عن مسألة، فقال الشافعي: يروى فيها كذا وكذا عن النبي ﷺ،
فقال السائل: يا أبا عبد الله، تقول به؟ فارتعد الشافعي وانتفض وقال: يا هذا، أيُّ
أرضٍ تُقِلُّني؟ وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني إذا رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقل به!
نعم، عن السمع والبصر.

وقد قال أحمد ابن حنبل -رحمه الله-: من رد حديث النبي ﷺ فهو على شفا
هلكة.

وقد جرت العادة بتعجيل عقوبة من لم يُعَظِّمِ السُّنَّةَ، من ذلك أن رجلاً أكلَ عند
رسول الله ﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قال: لا أستطيع، قال: «لا اسْتَطَعْتَ»
دعا عليه، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه. أي شَلَّتْ يَدُهُ.

وقال زكريا بن يحيى الساجي: كنا نمشي في بعض أَرْقَةِ البصرة إلى باب بعض

المُحَدِّثِينَ، فَأَسْرَعْنَا المَشْيَ، وَكَانَ مَعَنَا رَجُلٌ مَاجِنٌ مُتَّهِمٌ فِي دِينِهِ، فَقَالَ: "ارْفَعُوا أَرْجُلَكُمْ عَنْ أَجْنَحَةِ المَلَائِكَةِ لَا تَكْسُرُوهَا" كَالْمُسْتَهْزِئِ، فَمَا زَالَ مِنْ مَوْضِعِهِ حَتَّى جَفَّتْ رِجْلَاهُ وَسَقَطَ. قَالَ الحَافِظُ عَبْدِ القَادِرِ الرَّهَائِيُّ: "إِسْنَادُ هَذِهِ الحِكَايَةِ كَالْأَخْذِ بِالْيَدَيْنِ أَوْ كَرَأْيِ العَيْنِ، لِأَنَّ رَوَاتَهَا أَعْلَامٌ، وَرَاوِيَهَا إِمَامٌ".

وَفِي تَرْجُمَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِنْ سِيرِ أَعْلَامِ النِّبَلَاءِ قَالَ القَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ: "كُنَّا فِي مَجْلِسِ النِّظَرِ بِجَامِعِ المَنْصُورِ، فَجَاءَ شَابٌّ خِرَاسَانِي فَسَأَلَ عَنْ مَسْأَلَةِ الْمُصَرَّاءِ، فَطَالَبَ بِالدَّلِيلِ حَتَّى اسْتَدَلَّ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الوَارِدِ فِيهَا، فَقَالَ -وَكَانَ حَنْفِيًّا-: أَبُو هُرَيْرَةَ غَيْرُ مَقْبُولِ الحَدِيثِ. فَمَا اسْتَتَمَ كَلَامُهُ حَتَّى سَقَطَتْ عَلَيْهِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ سَقْفِ الجَامِعِ، فَوَثَبَ النَّاسُ مِنْ أَجْلِهَا، وَهَرَبَ الشَّابُّ مِنْهَا، وَهِيَ تَتَبَعُهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَبُّ تَبُّ، فَقَالَ: تَبْتُ، فَغَابَتِ الحَيَّةُ، فَلَمْ يُرَ لَهَا أَثَرٌ. قَالَ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ: "إِسْنَادُهَا أَثْمَةٌ".

وَقَدْ عَقَدَ الدَّارِمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي سَنَنِهِ بَابًا تَرْجَمَ لَهُ بِقَوْلِهِ: "بَابُ تَعْجِيلِ عَقُوبَةِ مَنْ بَلَغَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثٌ فَلَمْ يُعْظَمْهُ وَلَمْ يُؤَقِّرْهُ" وَأُورِدَ جُمْلَةٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ عَقُوبَاتٍ وَمُثَلَّاتٍ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يُعْظَمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(قَدِّمَ عَلَى كُلِّ الْوَرَى مَحَبَّتَهُ) يَجِبُ تَقْدِيمُ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَحَبَّةِ كُلِّ الْوَرَى أَيْ الْخَلْقِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وَقَوْلُهُ ﷺ: (وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) تَدْخُلُ فِيهَا نَفْسُكَ.

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ

فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر» أي الآن عرفت فنطقت بما يجب.

وكيف لا نقدم محبته ﷺ على محبة كل أحد، وما من خير إلا دلنا عليه، وما من شر إلا حذرنا منه! وقال ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم».

ومحبة النبي ﷺ من أخص صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم، قال ﷺ: «من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي، يود أحدكم لو رآني بأهله وماله».

ومن مقتضيات محبته ﷺ: الإكثار من الصلاة عليه ﷺ، وقد قال ﷺ: «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا» انظر إلى هذا الفضل العظيم، لو قيل لك: إنك لو صليت على النبي ﷺ عشر مرات صلى الله عليك مرة واحدة، لكان هذا فضلا عظيما، فكيف وأنت بصلاة واحدة على النبي ﷺ يصلي الله عليك عشر مرات!

ومن مقتضيات محبته ﷺ: اتباعه، فليست المحبة بالادعاء، وإنما هي المحبة الصادقة التي تدعو إلى الاتباع، فمن أحب النبي ﷺ كان هواه تبعاً لما جاء به.

مَنْ ادَّعَى حُبَّ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ فَاسْتَشْهِدُوا أَخْلَاقَهُ وَسِيرَهُ
ومن مقتضيات محبته ﷺ: تعلُّم سيرته وشماله ﷺ، لأنها منهج حياة لكل مسلم يرجو لنفسه الخير.

وَمَنْ دَرَى الْأَخْبَارَ وَالشَّمَائِلَ لَمْ يَكُ عَنْ صَوْبِ الْهُدَى بِمَائِلَ
ثم بعد أن وصى بالأدب مع الله جل جلاله، ومع الرسول ﷺ، انتقل إلى أعظم الحقوق بعد حق الله وحق رسوله ﷺ، وهو حق الوالدين ببرهما والإحسان إليهما ومعاملتهما بالأدب والخلق الحسن فقال:

وَبَرٍّ وَالِدَيْكَ وَلِتُطْعُمَهُمَا (٧) تَفَزَّ وَصَلْ أَيَا بُنَيَّ الرَّحِمَا

يقال: بَرَّ والدَيْهِ يَبْرُهُمَا بفتح الباء فيهما، والأمرُ منه: بَرَّ والديكَ بفتح الباء فهو بَرٌّ، والاسم البرُّ وهو الإحسان إلى الوالدين بأنواع الإحسان.

وقد صَدَرَ الكلام عن الأخلاق بعد ذكر حق الله وحق رسوله ﷺ، بالخلق مع الوالدين، وكأنه يقول لك: يا من تقرأ أحسن الأخلاق، وتتعلم أكمل الآداب لتحلى بها، اعلم أن أولى الناس بهذه الأخلاق وأحقهم بهذه الآداب وبُحْسَنِ الصحبة هما الوالدان.

لذا صَدَّر الإمام البخاري كتابه الأدب المفرد بأبواب عديدة في بر الوالدين، وهذه لفظة عظيمة منه يشير بذلك إلى أنَّهما أحقُّ الناس بحسن الخلق والأدب الكريم.

وقد قرَنَ الله تعالى حقهما بحقه في آيات، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾

[لقمان: ١٤]، وقد أخبر النبي ﷺ أن رضا الله حاصل للعبد إذا رضي عنه والداه، وأن

سخطه سبحانه حالٌ بالعبد إذا أسخط والديه، قال ﷺ: «رِضا الله في رِضا

الوالدين، وسخطُ الله في سخطِ الوالدين»، فبرُّ الوالدين وطاعتُهما فيه الفوز.

كما قال: (وَبَرِّ وَالِدَيْكَ وَلْتُطْعِمَهُمَا تَفَرُّ).

وبرُّ الوالدين واجبٌ ولو كانا مُشركين ما لم يأمرهما بمعصية، فإن أمرأه بمعصية فلا

طاعة لهما في ذلك، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لكن تبقى المصاحبة

بالبر والإحسان، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

والعقوق من كبائر الذنوب، بل من أكبر الكبائر، قال ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ

الْكِبَائِرِ؟» قالها ثلاثاً قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوقُ

الْوَالِدَيْنِ».

وضابطُ عقوقِ الوالدينِ صدورُ ما يتأذى به الوالد من ولده من قولٍ أو فعلٍ تَأَذِّيًّا ليس بالهَيِّنِ عُرْفًا، وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِيٍّ يَقْرَأُ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بَنُ النُّعْمَانِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «كَذَلِكَ الْبِرُّ كَذَلِكَ الْبِرُّ» وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ.

وقد كان أبو هريرة - رضي الله عنه - مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي بِرِّهِ بِأُمِّهِ، كان إذا مَرَّ عليها في دخوله أو خروجه يَقِفُ على بابها ويقول: السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته. فتقول: وعليك السلام يا بني ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربَّيتني صغيرًا، فتقول: وأنت فجزاك الله خيرًا ورضي عنك كما برَّرتني كبيرًا. ولبعض الشعراء قصيدةٌ عذبةٌ يروي فيها قصةً خياليةً لِغُلامٍ طائشٍ استجاب لِإِغْوَاءَاتِ الْمَالِ مُقَابِلَ التَّضْحِيَةِ بِحَيَاةِ أُمِّهِ الَّتِي ظَلَّتْ رَحِيمَةً بِهِ فِي حَيَاتِهَا وَبَعْدَ مَمَاتِهَا، يقول:

أَغْرَى أَمْرُؤُ يَوْمًا غُلَامًا جَاهِلًا	بُنْقُودِهِ حَتَّى يَنَالَ بِهِ الْوَطَرَ
قَالَ: ائْتِنِي بِفُؤَادِ أُمِّكَ يَا فَتَى	وَلَكَ الدَّرَاهِمُ وَالْجَوَاهِرُ وَالْدُّرُ
فَمَضَى وَأَغْرَزَ خَنْجَرًا فِي صَدْرِهَا	وَالْقَلْبَ أَخْرَجَهُ وَعَادَ عَلَى الْإِثْرِ
لَكِنَّهُ مِنْ فَرْطِ سُرْعَتِهِ هَوَى	فَتَدَخَّرَجَ الْقَلْبُ الْمُعَذَّبُ إِذْ عَثَرَ
نَادَاهُ قَلْبُ الْأُمِّ وَهُوَ مُعَفَّرٌ	وَلَدِي حَبِيبِي هَلْ أَصَابَكَ مِنْ ضَرَرٍ؟
فَكَأَنَّ هَذَا الصَّوْتَ رَغَمَ حُنُوِّهِ	غَضَبُ السَّمَاءِ عَلَى الْغُلَامِ قَدْ انْهَمَرَ
وَرَأَى فَظِيعَ جِنَايَةٍ لَمْ يَأْتِهَا	أَحَدٌ سِوَاهُ مِنْذُ تَارِيخِ الْبَشَرِ

وَارْتَدَّ نَحْوَ الْقَلْبِ يَغْسِلُهُ بِمَا فَاضَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ سَيْلِ الْعَبَرِ
وَيَقُولُ: يَا قَلْبُ انْتَقِمْ مِنِّي وَلَا تَغْفِرْ فَإِنَّ جَرِيْمَتِي لَا تُغْتَفَرُ
وَاسْتَلَّ خَنْجَرَهُ لِيَطْعَنَ صَدْرَهُ طَعْنًا سَيَبْقَى عِبْرَةً لِمَنْ اغْتَبَرَ
نَادَاهُ قَلْبُ الْأُمِّ: كُفَّ يَدًا وَلَا تَذْبَحْ فُؤَادِي مَرَّتَيْنِ عَلَى الْأَثَرِ
(وَصِلْ أَيَا بُنَيَّ الرَّحِمَا) حَثَّ النَّاظِم - وفقه الله - على صلة الرحم.

وصلة الرحم: الإحسانُ إلى الرحم بإيصال ما أمكن من الخير إليهم ودفع ما أمكن من الشر عنهم.

وقد تكاثرت الأدلة في وجوب صلة الرحم والحث عليها، فصلة الرحم علامة الإيمان، قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وأخبر ﷺ أن من وصل رَحِمَهُ وصله الله، أي وصله الله برحمته ولطفه وإحسانه، قال ﷺ: «الرَّحِمُ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ». وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ».

والناس في باب صلة الرحم ثلاثة أقسام:

- الأول: الواصل وهو الذي يتفضل على رحمه بصلتهم، وإن لم يصله منهم أحد، بل ولو أساءوا إليه.

- والثاني: المكافئ والمجازي وهو الذي لا يصل رحمه إلا إذا وصلوه.

- والثالث: القاطع وهو الذي يقطع رحمه وَصَلُوهُ أو قَطَعُوهُ، وقد قال النبي

ﷺ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»

وَضُبِطَ فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ بَفَتْحَتَيْنِ «الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا» يقول: إن الذي

يصل رحمه مكافأةً ومجازةً لهم على صلتهم له ومقابلةً لهم بمثل ما فعلوا، ليس

هو الواصل في الحقيقة؛ لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة، ولكن الواصل في الحقيقة مَنْ يتفضل على رحمه بالصلة ولو قطعوه.

بَجِّلْ كَبِيرًا وَارْحَمْ الصَّغِيرًا (٨) وَسَاعِدِ الضَّعِيفَ وَالْفَقِيرَ

(بَجِّلْ كَبِيرًا وَارْحَمْ الصَّغِيرًا) بعد أن وَصَّاكَ بِرِّ الوالدين وصلة الرحم بَيْنَ لك هنا أَنَّ من الأدبِ تبجيلَ الكبيرِ ورحمةَ الصغيرِ، فيتعينُ على كلِّ أحدٍ أن يُعْطِيَ الكبيرَ حَقَّهُ من التبجيلِ والتوقيرِ والإجلالِ، وأن يُعْطِيَ الصغيرَ حَقَّهُ من الرحمةِ والشفقةِ والعطفِ.

وقد قال النبي ﷺ: «ليس منا مَنْ لم يُجِلِّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا» يعني حقه، والمراد: أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان.
ولقد أجاد من قال:

ارْحَمْ بُنَيَّ جَمِيعِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ اللَّطْفِ وَالشَّفَقَةِ
وَقَرِّ كَبِيرَهُمْ وَارْحَمْ صَغِيرَهُمْ وَرَاعِ فِي كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهُ
(وَسَاعِدِ الضَّعِيفَ وَالْفَقِيرَ) مِنْ الْأَدَبِ مُسَاعَدَةُ الضُّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ

بالإحسانِ إليهم وجبرِ خواطرهم، والسعيِّ في حوائجهم، وإدخالِ السرورِ عليهم ونفعِهم، وقد قال النبي ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأنَّ أَمْشِيَّ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكَفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ -يعني مسجد المدينة- شهرًا» إلى أن قال ﷺ: «وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُلُّ الْأَقْدَامُ».

وَكُنْ شَجَاعًا صَابِرًا كَرِيمًا (٩) وَشَاكِرًا وَفِطْنًا حَلِيمًا

(وَكُنْ شَجَاعًا) أي ثابت القلب عند الشدائد والمصائب، مُقَدِّمًا في مواضع الإقدام، لا يعتريك الجبن ولا الخور، وقد كان النبي ﷺ أشجع الناس، يُلُوذُ به شجعان الصحابة فيثبتهم ويَشَجِّعُهُمْ، وكانوا إذا احمرَّ البأس يتَّقُونَ به ﷺ، وإن الشجاع منهم للذي يحاذي رسول الله ﷺ، حتى إنه ﷺ لما انكشف الناس عنه يوم حنين وفرُّوا ثبت في مَعْمَعَانِ الحرب تحت ظلال السيوف ورشَقِ السَّهَامِ ثبات الجبال الراسيات وهو ﷺ يقول: «أنا النبي لا كَذِبُ، أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبِ».

(صَابِرًا) أي كُنْ مُتَحَلِّيًا بالصبر، وقد أمر الله تعالى بالصبر، وأخبر أنه مع أهله ينصرهم ويؤيدهم ويوفقهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وجعل الصبر طريقًا إلى الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، وأخبر سبحانه عن مضاعفة أجر الصابرين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

ولا بد أن يكون الصبر لله لا ليُقَال: صابر، قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

[المدثر: ٧]، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢].

والصابر لا يزال مهديًا من ربه مُوَفَّقًا للصواب، قال ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ».

والصبر ثلاثة أقسام:

- صبر على طاعة الله.

- وصبر عن معصية الله.

- وصبر على أقدار الله المؤلمة وعلى أنواع البلاء، فلا يجزع ولا يتسخط.

وقد كان السلف الصالح يُعَظِّمُونَ أمر التسخط، قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: **لَأَنْ أَعْصَى عَلَى جَمْرَةٍ حَتَّى تَبْرُدَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقُولَ لشيءٍ قَضَاهُ اللَّهُ: لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ.**

وقال أبو مسعود البلخي: **مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَمَزَّقَ ثَوْبًا أَوْ ضَرَبَ صَدْرًا، فَكَأَنَّمَا أَخَذَ رَمَحًا يَرِيدُ أَنْ يِقَاتِلَ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.**

وينبغي أن يعلم مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ أَنْ الذي ابتلاه بمصيبته هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، وأنه سبحانه ما ابتلاه ليهلكه ولا ليعذبه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره، وليسمع تضرعه ودعائه، وليراه طريقًا باباه، لائذاً بجنابه، رافعاً يَدَيِ الضراعة إليه، يشكو بثه وحزنه إليه، فينال بذلك عظيم موعود الله وجزيل عطائه **﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة: ١٥٧]، وكلما اشتدَّ الكرب كان الفرج قريباً، كما قيل:

اشْتَدَّيْ أَرْزَمُهُ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ لَهَا الْفَتَى ذَرَعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

قال تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا**

فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

والنظر في أحوال الصابرين يعينك على التحقق بالصبر.

هذا عروة بن الزبير - رحمه الله - أصابته الآكلة في قدمه فقطعت، وكان له ابن من أحبّ ولده إليه، ركضته بغلة فمات، فقال عروة: "اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة، وكانت لي أطراف أربعة، فأخذت منها طرفاً وأبقيت لي ثلاثة، فلئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لطالما عافيت".

ومما يعين على الصبر احتساب ثواب الله في الآخرة، قال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لقدمنا على الله مفاليس.

وفي الحديث: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القيامةِ حينَ يُعطى أهلُ البلاءِ الثَّوابَ لو أنَّ جُلودَهُم كانت قُرِضَتْ في الدُّنيا بالمقاريضِ».

وقال ﷺ: «ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسه وولده وماله حتّى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئةٌ».

وقال ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرِّضا ومن سخط فله السَّخَطُ».

والعبد قد تكون له عند الله منزلة عالية، وقد قصّر به عمله عن بلوغها، فيبتليه الله ليرفعه إليها، في الحديث: «إنَّ العبدَ إذا سبقت له من الله منزلةٌ لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ثم صبره على ذلك حتّى يُبلِّغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى».

(كريمًا) أي باذلاً تُعطي بسهولة ويسر، ومن علامات التوفيق أن يكون العبد كلما زيد في ماله زاد بذله وعطاؤه، وكلما زيد في علمه زاد تواضعه وزادت خشيته، وكلما زيد في جاهه زاد في قربه من الناس وفي قضائه لحوائجهم وتواضعه لهم.

فليس الكرم خاصاً بالمال، بل يكون بالمال ببذله للمحتاجين، ويكون بالعلم

بتعليم العلم وبذله لمن ينتفع به، ويكون بالجاه بالسعي في حوائج الخلق بجاهه.
وكما يكون للفقير، يكون أيضًا للجار وللضيف، قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».
ونبينا ﷺ - وهو القدوة الحسنة - كان أجود الناس وأعظمهم كرمًا، وكان أجود
بالخير من الريح المرسلة، ما سئل ﷺ شيئًا إلا أعطاه، جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين
جبلين، فرجع الرجل إلى قومه فقال: "يا قوم، أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاءً لا
يخشى الفاقة".

أَعْطَى عَطَايَا شَهِدَتْ بِالكَرَمِ يَوْمَئِذٍ لَهُ وَلَمْ تُجْمَعْ
وَكَيْفَ لَا وَمُسْتَمَدُّ سَيِّئِهِ مِنْ سَيِّبِ رَبِّ ذِي عِنَايَةٍ بِهِ
أَعْطَى عَطَايَا أَخْجَلَتْ دُلْحَ الدَّيْمِ إِذْ مَلَأَتْ رَحْبَ الْفَضَا مِنَ النَّعْمِ
زُهَاءَ أَلْفِي نَاقَةٍ مِنْهَا وَمَا مَلَأَبَيْنِ جَبَلَيْنِ غَنَمًا
لِرَجُلٍ وَبَلَهُ مَا لِحَلْقِهِ مِنْهَا وَمِنْ رَقِيقِهِ وَوَرِقِهِ
وقال ﷺ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّني أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ
وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْضُدُّهُ لِدَيْنٍ».

وهكذا كان أصحابه ﷺ ورضي الله عنهم، لما أمر النبي ﷺ بالصدقة جاء
عمر بنصف ماله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].
جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ:
﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ
مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعُهَا يَا رَسُولَ

اللَّهُ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ».

وهكذا كان من بعدهم، كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين -رحمه الله- فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل.

وهذا الليث بن سعد، فقيه مصر وعالمها، كانت غلته كل سنة عشرين ألف دينار، ومع ذلك ما وجبت عليه زكاة قط، قال عن نفسه: "ما وجبت عليّ زكاة منذ بلغت" كان يُفَرِّقُهَا فِي الْعُلَمَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، وَجَاءَتْهُ مَرَّةً امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: "يَا أَبَا الْحَارِثِ، إِنْ ابْنًا لِي عَلِيلٌ، وَاشْتَهَى عَسَلًا" فَقَالَ اللَّيْثُ: "يَا غَلَامُ، أَعْطَاهَا مِرْطًا مِنْ عَسَلٍ" وَالْمِرْطُ: عَشْرُونَ وَمِئَةُ رَطل.

وكتب مالكٌ إلى الليث مرة: "إني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها، فأحب أن تبعث لي بشيء من عُصْفُرٍ" فبعث إليه الليث بثلاثين جملاً عُصْفُرًا، فَصَبَغَ مِنْهُ مَالِكٌ لَابْنَتِهِ وَبَاعَ مِنْهُ بِخَمْسِ مِئَةِ دِينَارٍ^١.

وحج الليث مرة، فأهدى إليه مالك رُطْبًا على طبق، فلم يشأ الليث أن يردَّ الطبق خاليًا، فرد إليه في الطبق ألف دينار.

(وَشَاكِرًا) الشُّكْرُ: ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى قَلْبِ الْعَبْدِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ. يَكُونُ بِالْقَلْبِ بَأَنٍ تَعْتَرِفُ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ مُسْدِي هَذِهِ النِّعَمِ الْمَتَفَضِّلِ بِهَا، وَبِاللِّسَانِ بَأَنٍ تُثْنِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهَا، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وبالجوارح

^١ ولا تظن أن خمس مئة دينار تساوي خمس مئة ريال، هذه دنانير ذهبية، من ملك عشرين دينارًا فقد ملك النصاب ووجبت عليه الزكاة، خمس مئة دينار تساوي اليوم أكثر من نصف مليون ريال.

بأن تستعين بنعمه على طاعته، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].
وقد أمر الله تعالى بالشكر فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأخبر سبحانه أن شكره سبب لرضاه، ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وأخبر أن الشكر أمانٌ من العذاب: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، قال قتادة: "إن الله جل ثناؤه لا يعذب شاكرًا ولا مؤمنًا".

والشكر سبب للزيادة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: "قيدوا النعم بالشكر"، وقال الحسن البصري: "إن الله لِيُمَتِّعَ بالنعم ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا"؛ لهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ الجالب، لأنه يحفظ النعم الموجودة ويجلب النعم المفقودة، ثم هو سبب للأجر الجزيل: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأعلى الشاكرين وأعظمهم قدرًا في الشكر وفي كل فضيلة هو نبيُّنا ﷺ، كان رسولُ الله ﷺ عليه وسلَّم يقومُ الليلَ حتَّى تتفطرَ قدماهُ، ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

وكان إذا جاءه أمر يسره، خر ساجدا لله شكرًا له.
وعلم معاذًا -رضي الله عنه- أن يقول دبر كل صلاة: "اللهم أعني على ذكرك

وشكرك وحسن عبادتك".

وكما ينبغي أن يشكر العبد ربه على نعمه، فكذلك ينبغي أن يشكر من أسدى إليه معروفًا من الخلق، فقد قال النبي ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، وقال ﷺ: «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

(وَفُطْنًا) الفطنة: التنبه للشيء وسرعة إدراكه، ينبغي للمسلم أن يكون فطنًا لا يخدع، ومن أعظم طرق اكتساب الفطنة الإيمان والعلم النافع، فإن الإيمان والعلم النافع يزيدان الفطنة وينوران البصيرة.

والمتصدي لنفع الناس وتعليمهم وإرشادهم ينبغي أن يكون فطنًا سريع الإدراك حسن التصرف، ومن نماذج الفطنة فطنة سليمان عليه السلام، قال النبي ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام، ففضى به للكبرى، فخرجتا إلى سليمان بن داود فأخبرته فقال: اتنوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، ففضى به للصغرى».

ومن نماذج الفطنة فطنة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، قال أنس -رضي الله عنه-: "لما هاجر رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يركب وأبو بكر رديفه، وكان أبو بكر يُعرف في الطريق لاختلافه إلى الشام، وكان يمرُّ بالقوم فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هادٍ يهديني، فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق الحسي، وهو يعني أنه يهديه طريق الخير.

ولما خطب النبي ﷺ الناس، وقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، قال أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَجِبْنَا لِبَكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدِ خَيْرٍ! فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْعَبْدُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا».

ومنها فطنة أبي حازم رحمه الله، جاءه رجل فقال له: "إن الشيطان يأتيني فيقول: إنك قد طلقت زوجتك فيُشككني" فقال أبو حازم: "أوليس قد طلقته؟" قال: "لا"، قال: "ألم تأتي أمس فطلقتها عندي؟" قال: "والله ما جئتك إلا اليوم، ولا طلقته بوجه من الوجوه"، قال: "فاحلف للشيطان إذا جاءك كما حلفت لي وأنت في عافية!"

ومنها فطنة القاضي أبي بكر الباقلاني، كان -رحمه الله- غاية في الفطنة، ذكروا أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم، فلما انتهى إليه، إذا هو يدخل عليه من باب قصير، ففهم الباقلاني أن مرادهم بذلك أن ينحني فيدخل كهية الراكع للملك، فدخل الباب بظهره، وجعل يمشي القهقري إلى نحو الملك، ثم انفتل فسلم عليه، فعرف الملك مكانه من العلم والفهم فعظمه.

وسأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم: "ما فعلت زوج نبيكم، وما كان من أمرها فيما رميت بهم من الإفك؟" فقال مجيباً له على البديهة: "هما امرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل، وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج"، يعني أن عائشة -رضي الله عنها- أولى بالبراءة من مريم الصديقة، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال إلى هذه، فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله مبرأتان من السماء بوحى من الله عز وجل.

(حَلِيمًا) الحِلْمُ التعقل والأناة، وقد ندبنا القرآن إلى الحلم والعفو والتجاوز، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والحلم خصلة يحبها الله، قال النبي ﷺ في أشجِّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَاءَةَ»، وقال ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»، وضبط النفس والتعقل وكتمان الغيظ هو من الحلم، قال الشاعر:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاظِمًا لِلْغَيْظِ بُصِيرٌ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصْبِرُ سَاعَةً يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ

وإذا ذكرَ الحلم ذَكَرَ الأحنف بن قيس، وهو التابعين، أسلم - رحمه الله - في حياة النبي ﷺ، لكنه لم يجتمع به، وكان سيد بني تميم مطاعاً فيهم، كان إذا غَضِبَ سَلَّتْ بنو تميم سيوفها قبل أن يعلموا فيم غضب، وقد قيل له: "ممن تعلمت الحلم؟" فقال: من قيس بن عاصم المنقري، وقيس بن عاصم صحابي - رضي الله عنه - وهو خال الأحنف.

قال الأحنف: كنا نختلف إليه في الحلم كما يُختلف إلى الفقهاء في الفقه، رأيته يوماً قاعداً محتبياً بحمالة سيفه، يحدث قومه إذ أتى برجلٍ مكتوفٍ وآخر مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك؟ فوالله ما حل حبوته ولا قطع كلامه، فلما أتمه، التفت إلى ابن أخيه، فقال له: "يا ابن أخي، عصيت ربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك"، ثم قال لابن له آخر: "قم يا بني، فوارِ أخاك، وحلِّ كتاف ابن عمك، وسقِ إلى أمك مئة ناقة دية ابنها، فإنها

غريبة".

وقد قال الأحنف: "لست بحليم، ولكنني أتحالم".

قال حاتم الطائي:

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبِقْ وَدَّهْمَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا

أي: كن حليماً على أقاربك ومن تعاشره وتصاحبه، واستبق حبهم لك، وإذا لم تكن حليماً، فاصطنع الحلم، فالشأن كما قال النبي ﷺ: «الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ».

وَذَا أَنَاةٍ وَحَيَاءٍ وَارْفُوقٍ (١٠) وَكُنْ أَمِينًا وَتَوَاضَعْ وَاصْدُقْ

الأناة: التَّبُّتُ وترك العجلة.

وقد سبق قول النبي ﷺ للأشج أشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ:

الْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ»، وقد قال النبي ﷺ: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ» أي من

الصفات الحسنة التودة والتأني والتَّمَهُّلُ في كل الأعمال إلا في أعمال الآخرة التي

ينبغي المبادرة إليها، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وفي التأني نيل الفرص والعصمة من الزلل، "وَمَنْ تَأَنَّى نَالَ مَا تَمَنَّى"، وقد قال

الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

والتأني مطلوب في كثير من أحوال العبد، فهو مطلوب مثلاً في الذهاب إلى

المسجد: قال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ

وَالْوَقَارَ وَلَا تُسْرِعُوا». وهو مطلوب في طلب العلم، كما قال الزهري: "لا تأخذ

العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع

الليالي والأيام". وهو مطلوب في التحدث مع الآخرين، وقد كان النبي ﷺ

يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه، ولم يكن يسرده. وهو مطلوب في الدعاء، قال النبي ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي». وهو مطلوب في نقل الأخبار حتى لا يندم على تسرعه في نقل خبر غير صحيح، وكذلك في الفتيا، وقد قال الإمام مالك: "العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخُرْق"، وبالجملة فالمتأنّي المتثبت في أموره يتهيأ له من الصواب ما لا يتهيأ للعجل، ويدرك من الخير ما لا يدركه العجل.

(وَحَيَاءٍ) أي كن ذا حياء، والحياء خلقٌ يبعث صاحبه على اجتناب القبيح. والحياء شعبة من الإيمان، وهو لا يأتي إلا بخير، وإذا نُزِعَ من الإنسان الحياء نُزِعَ منه الخير، وقد كان نبينا ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، و«كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا».

وأعلى صور الحياء: الحياء من الله سبحانه وتعالى. يعصي العبدُ فيستره ربّه، ثم يدعوّه ويرفع إليه يديه فيستحيي من عبده أن يردّهما صفراً خائبتين سبحانه وتعالى. وقد بكى الأسود بن يزيد فسئل فقال: "والله لو أُتيتُ بالمغفرة من الله، لأهَمَّنِي الحياء منه مما قد صنعت" ثم قال: "إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه ولا يزال مستحيّاً منه". وبكى الفضيل بن عياض في عَرَفة وكان يقول: "واسوأُتاه منك وإن عفوت، واسوأُتاه منك وإن عفوت".

وقد قال عبيد بن عمير: "آثروا الحياء من الله على الحياء من الناس". وعلى حَسَبِ حياة القلب بالإيمان يكون خلق الحياء، فكلما كان القلب أتمَّ

حياة، كان صاحبه أتم حياءً، وقد أنشد بعضهم الإمام أحمد قول القائل:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي أَمَا اسْتَحْيَيْتَ نَعْصِيَنِي
وَتُخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْقِي وَبِالْعَصِيَّانِ تَأْتِينِي

فقام الإمام أحمد ودخل بيته وردَّ الباب، قال: فسمعت نحيبه من داخل البيت، وهو يردد البيتين.

والمرأة الصالحة لها نصيب وافر من هذا الخلق بالتزامها بحيائها وسترها وحجابها، قال تعالى عن إحدى ابنتي شيخ مدين: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥] كأنها جعلت الحياء طريقاً في الحياة الذي تمشي عليه، واستمع إلى ما قالته هل تجد فيه كلمة زائدة؟ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

ومن الحياء: الحياء من الناس، بأن لا يؤذي أحداً بلسانه ولا بيده، فلا يتلفظ بالقبيح، وهو دليل مروءة الإنسان.

(وَأَرْفُقُ) الرِّفْقُ: لينُ الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل وترك العنف. والرِّفْقُ خُلُقٌ يحبه الله، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»، وفي رواية: «يُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ». والرفق يزِينُ كُلَّ مَا صَاحَبَهُ، قال ﷺ: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا نُزَعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».

وبالرفق ينال الإنسان الخير وتيسر له أموره، قال ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ».

وقد كان نبينا ﷺ رفيقاً، هيناً ليناً، ورفقه ﷺ لم يخص به حالاً دون حال أو قوماً دون قوم، بل كان رفيقه سلوكاً عاماً في حياته كلها ﷺ وفي كل شؤونها.

كان ﷺ رفيقاً بقومه رغم أذيتهم له، لما قال ملك الجبال: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ فَعَلْتُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً».

وكان ﷺ رفيقاً في تعليمه، لما تكلم معاوية بن الحكم السلمي - رضي الله عنه - في الصلاة، وأنكر عليه الصحابة، فجعلوا يضربون على أفخاذهم، قال - رضي الله عنه -: "فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ، لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ».

وكان ﷺ رفيقاً بالصغار، قال أسامة بن زيد - رضي الله عنهما -: "كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدي على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما، ثم يقول: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحُمُهُمَا».

وما أحرى من يتصدى لنفع الناس وتعليمهم وإرشادهم أن يتحلى بهذا الخلق الكريم، بينما الرشيد يطوف يوماً بالبيت، إذ عرض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلّمك بكلام فيه غلظة. فقال الرشيد: لا، ولا نُعْمَةَ عَيْنٍ، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولاً ليناً. يُشير إلى قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا

لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

(وَكُنْ أَمِينًا) الأمانة: خلقٌ يَعِفُّ به الإنسان عما ليس له بحق، ويؤدي به ما عليه من حق، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بأداء الأمانة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وجعل سبحانه أداء الأمانات من صفات المفلحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّ الأمانة والرحم تقومان جَنْبَتِي الصراط، يمينًا وشمالًا، أي أنهما توقفان هناك للأمين والخائن وللواصل والقاطع، فتُحاجَّان عن المُحَقِّ وتشهدان على المبطل، فيكون ذلك سُرورًا للأمين والواصل، وفضيحةً للخائن والقاطع.

والأمانة تكون في الأموال بأدائها إلى أصحابها، وفي الأعراض: بكف النفس واللسان عن التعرض للأعراض بسوء، وتكون في الأرواح والأجسام: بكف النفس واليد عن التعرض لها بسوء، وتكون الأمانة في الزوجة بالإحسان إليها، وتكون في الأولاد بحسن تربيتهم، وتكون في السمع والبصر والفؤاد وسائر الجوارح بحفظها عن الحرام واستعمالها فيما يحبه الله ويرضاه.

وأعظم من اتصف بالأمانة نبينا ﷺ، فقد كان يُعرَف قبل مبعثه ﷺ بالصادق الأمين، وبعد مبعثه ﷺ مع شدة عداوة قومه له لم يكن أحدٌ منهم عنده شيءٌ يخشى عليه إلا وضعه عند نبينا ﷺ لما يعلم من أمانته.

ولما خرج ﷺ إلى الهجرة، أمر عليًّا -رضي الله عنه- كما يذكر أهل السير أن يتخلف بمكة حتى يؤدي الودائع التي كانت عند النبي ﷺ لهؤلاء الذين يسعون في قتله ويرصدون الجوائز لمن يأتي به حيًّا أو ميتًا.

وقد أدى النبي ﷺ أعظم أمانة وهي هذا الدين، وتحمل في سبيل وصول الدين إلينا أعظم المشاق، وقد قال يوم عرفة بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة: «أنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: اللهم اشهد».

ونحن نشهد أنه ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وقد رضي بنا به نبياً ورسولاً، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عنا خير ما جزي نبياً عن أمته، وأن يحينا على سنته وأن يمتنا على ملته، وأن يبعثنا في زمرته، وأن يحشرنا تحت لوائه ﷺ.

(وتواضع) ندب الناظم - وفقه الله - إلى التحلي بالتواضع، بترك التَّراُس وتجنب المباهاة والمفاخرة، وقد أمر النبي ﷺ بالتواضع، فقال: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وأخبر ﷺ أن التواضع رفعة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «وما تواضع أحد لله إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

إِنَّ التَّوَّاضَعَ مِنْ خِصَالِ الْمُتَّقِي وَبِهِ التَّقِيُّ إِلَى الْمَعَالِي يَرْتَقِي

وقد كان النبي ﷺ جم التواضع، خافض الجناح للمؤمنين، يجلس بين أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل عنه، ولما قيل له: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيّدنا وابن سيّدنا قال: «يا أيُّها النَّاسُ قولوا بقَوْلِكُمْ ولا يستهوينكم الشيطانُ أنا محمّدٌ عبدُ الله ورسولُهُ ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزِلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ».

وكذلك كان أصحابه ﷺ ورضي الله عنهم بعده، ساروا على نهج النبي

الكريم، فلم يستكبر أحد منهم، بل كان خلقهم التواضع، وهم خير الخلق بعد الأنبياء وهم صفوة الأمم.

(وَاصْدُقْ) بأن يكون كلامك مطابقاً للواقع.

وقد أمر الله بلزوم الصدق فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وأخبر أن الصدق هو الذي ينفع الإنسان يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يكون الإنسان فيه أحوج ما يكون إلى ما ينفعه، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقد أمر النبي ﷺ بالصدق، وبين أنه وسيلة إلى الجنة، وحذر من الكذب وبين أنه وسيلة إلى النار، قال ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وقد كان نبينا ﷺ أصدق الناس، ولم يُجرب عليه كذب قط، لهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان كان في ما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

تَحَلَّ بِالْعَدْلِ وَبِالْإِحْسَانِ (١١) وَالْعَفْوِ وَالْوَفَاءِ وَالْإِثْقَانِ

(تَحَلَّ بِالْعَدْلِ) بوضع الأشياء في موضعها وإعطاء كل شيء ما يستحقه.

وقد أمر الله تعالى بإقامة العدل وحث عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد بين النبي ﷺ عظيم أجر أهل العدل والقسط، قال ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ - وَكُنَّا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا».

وصور العدل كثيرة، منها:

عدل الإمام في رعيته؛ سواء أكانت ولايته عامة أم خاصة، وعدل القاضي في الحكم بين الناس، وعدل الزوج مع زوجته أو زوجته، وعدل الأب مع أولاده، فهذا كله من العدل المعمول به.

وقد كان نبينا ﷺ أعدل الناس، لما أتهم قريشاً شأن المخزومية التي سرقت، وكلموا أسامة رضي الله عنه، فكلم النبي ﷺ، غضب ﷺ وقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» ثم قام فاخطب ثم قال: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمَ اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَاهَا» وهذا غاية عدل البشر.

(وَبِالْإِحْسَانِ) الإحسان: ضد الإساءة، وهو أن تفعل ما ينفع غيرك، وقد أمر الله عز وجل بالإحسان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، والإحسان فوق العدل؛ لأن العدل أن يُعْطِيَ الإنسان ما عليه، والإحسان أن يعطي الإنسان فوق ما عليه، فالعدل واجب، والإحسان ندب وتطوع، وقد قال الله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» فالإحسان واجب في جميع الأعمال.

ومن صور الإحسان: الإحسانُ إلى الوالدين، قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والإحسانُ بين الزوجين، قال ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا»، وقال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»، والإحسان إلى الخلق جميعًا، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بالنعيم، ومنه الإحسان في الكلام ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومن صور الإحسان الجليلة: الإحسان إلى المسيء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

ومن لزم الإحسان وكان الإحسان منهجًا له أحسن الله جزاءه، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وأعلى صور الإحسان وأرفعها شأنًا: الإحسان في عبادة الله، وهو لب الإيمان وروحه وكماله، وقد فسرهُ النبي ﷺ بأن تعبد الله كأنك تراه، وهذا مقام المشاهدة، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا مقام المراقبة.

وأعظم ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] هو الإحسان في عبادة الله، وقد علّم النبي ﷺ معاذًا -رضي الله عنه- أن يسأل الله أن

يرزقه حسن عبادته فقال: «أوصيك يا معاذ لا تدعن دُبْرَ كُلِّ صلاةٍ أن تقول: اللَّهُمَّ أعني على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عبادَتِكَ»، وكان من دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ».

ومما يعين على إحسان العمل، أن يستشعر العبد أن الله عز وجل مطلع عليه، لا يخفى عليه من عمل العبد شيء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فمن علم يقيناً أن الله عز وجل هو الشهيد الرقيب، وهو المطلع على عبادته، يعلم ما العباد عاملون، فإن ذلك يسوقه سوقاً حثيثاً إلى أن يُحسن في عبادة ربه، وأن يأتي بالعبادة على أكمل الوجوه، ولا يزال العبد يحمل نفسه على الإحسان في العبادة، ويعودها إياه حتى يصير ذلك صفة راسخة فيه لا يتكلفها.

وانظر في حال النبي ﷺ مع هذه المنزلة، كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، يصلي بالبقرة وآل عمران والنساء في ركعة واحدة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف عندها يسأل، ولا آية عذاب إلا وقف عندها يتعوذ، ولا آية تسبيح إلا وقف عندها فسبح الله.

حقاً يعبد الله كأنه يراه، حتى في قراءته لسورة الفاتحة، يقف عند رؤوس

الآيات لأنه يستشعر أنه إذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] أن الله تعالى يقول: حمدي عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، أن الله تعالى يقول: أثنى عليَّ عبدي.

الذي يصل إلى هذه المرحلة العظيمة في العبادة يعيش في شأن والناس في شأن آخر، وانظر إلى سجوده ﷺ في قيام الليل، كان يسجد بقدر ما يقرأ أحدنا خمسين آية، هذا لا يكون إلا لشوق وتعلق عظيم بالله سبحانه وتعالى غلب على قلبه فما يطيق أن يرفع رأسه.

وهكذا كان من بعده من الصحابة والتابعين، ابن عمر -رضي الله عنهما- كان في الطواف فطلب منه عروة بن الزبير رحمه الله طلباً، قال عروة: فلم يجبني بكلمة، ثم لقيه عروة بعد ذلك، فقال له ابن عمر -رضي الله عنهما-: نحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا، وكنت قادراً على أن تلقاني في غير ذلك الموطن. انظر إلى قوله: نحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا. هذا هو الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.

ونظر عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- إلى الصنابحي رحمه الله، وهو من أئمة التابعين، فقال: "من سرَّه أن ينظر إلى رجل كأنما رُقي به فوق سبع سماوات، فعَمَل ما عَمِلَ على ما رأى فليُنظر إلى هذا" يريد أنه يعبد الله كأنه يراه.

وتأمل في جزاء المحسنين، لما كان المحسن يعبد الله في الدنيا كأنه يراه، جزاه الله في الجنة برؤيته: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فَسَّرَ النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، وكلُّ مؤمن يرى ربه في الجنة، لكن هؤلاء لهم شأن آخر لإحسانهم، ومن أعظم الغبن أن يفارق الإنسان

الدنيا وما باشر قلبه حقائق الإيمان، ولا ذاق حلاوته، ولا شم لهذه المقامات العالية رائحة، هذا من أعظم الغبن.

وهذا أمر يستطيع أحدنا أن يصل إليه إذا بذل أسبابه، لا تظن أنه بعيدٌ خارج عن قدرة البشر، ليس الأمر كذلك، فهؤلاء الأئمة الذين وصلوا إلى هذه المقامات العالية، هم من البشر، إلا أن هذه المقامات تحتاج إلى تدرّج للنفوس شيئاً فشيئاً، ولا يزال العبد يعود نفسه على هذه المقامات وهذه الأخلاق الحسنة والآداب الكاملة حتى تنجذب النفس إليها وتعتادها، فيعيش العبد قرير العين بربه، فرحاً مسروراً بقربه، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

(وَالْعَفْوُ) والعفو: التجاوز عن العقوبة، والعفو عن الناس من صفات المتقين، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٣].

فجعل العفو من صفات المتقين الذين أعد لهم جنته، وقد جاء رجلٌ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال: «اعفوا عنه في كل يوم سبعين مرة»، وقال ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

وكان نبينا ﷺ أعظم الناس عفواً وأجملهم صفحاً، وقد كان ﷺ وهو وأصحابه -رضي الله عنهم- يسمعون من أهل الكتاب ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وكان ﷺ يمثلُ قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] فكان يعرض عنهم.

ولما سمّت تلك المرأة اليهودية شاةً، فأكل منها النبي ﷺ، جيء باليهودية فاعترفت، فأطلقها ﷺ وعفا عن حقه، لكن لما مات بشر بن البراء - رضي الله عنه - من سمها قُتِلَ به، وعفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحره. وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم، لما تكلم مسطح بن أثاثة في الإفك، ونزلت براءة عائشة رضي الله عنها، قال أبو بكر - رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يُجري عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

ولما قال عيينة بن حصن لعمر - رضي الله عنهما -: "يا ابن الخطّاب، والله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكّم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ بأن يقع به، فقال الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنّ هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله".

وقد جلس ابن مسعود - رضي الله عنه - مرة في السوق يبتاع طعاماً، فابتاع، ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته، فوجدها قد حُلّت، فقال: لقد جلست وأنا لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبدالله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة

فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب، فاجعلها آخر ذنوبه.

وَإِنْ أَسَاءَ مُسِيءٌ فَلْيَكُنْ لَكَ فِي عُرُوضِ زَلَّتْهُ صَفْحٌ وَغُفْرَانٌ

(وَالْوَفَاءِ) الوفاء ضد الغدر، وقد أمر الله تعالى بالوفاء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤]،

وجعل النبي ﷺ الغدر وعدم الوفاء من علامات النفاق فقال ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ

فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ

حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ

فَجَرَ».

وقد كان ﷺ بالمحل الأسمى والمقام الأعلى من الوفاء، من وفائه ﷺ

وفأؤه لخديجة - رضي الله عنها -، فقد «كَانَ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِشَيْءٍ يَقُولُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى

فُلَانَةٍ، فَإِنَّهَا كَانَتْ صَدِيقَةً خَدِيجَةَ، اذْهَبُوا بِهِ إِلَى بَيْتِ فُلَانَةٍ فَإِنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ

خَدِيجَةَ» (وكان يُكثِرُ ذِكْرَهَا، وَرَبَّمَا ذَبَحَ الشَاةَ، ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي

صَدَائِقِ خَدِيجَةَ».

بل كان ﷺ يفي لِعَدُوِّهِ، لما خرج حذيفة بن اليمان ووالده رضي الله عنهما،

أخذتهما قريش، وقالوا: إنكم تريدون محمداً ﷺ. فقالا: ما نريد إلا المدينة. قال

حذيفة: فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لنصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. قال:

فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: «انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَنَسْتَعِينُ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، فذلك الذي منع حذيفة أن يشهد بدرًا.

وقد وفي أصحاب رسول الله ﷺ بالعهود والمواثيق، وقد أثنى الله تعالى

عليهم بذلك، فقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾

[الأحزاب: ٢٣].

وقد وفي أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فأنفذ جيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - الذي كان عزم النبي ﷺ على إرساله، ولما حضرت عبد الله بن عمرو الوفاة، قال: "إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش، وكان مني إليه شبيه بالوعد، فوالله لا ألقى الله بثلاث النفاق، اشهدوا أنني قد زوجتها إياه".

(وَالْإِتْقَانُ) الإِتْقَانُ: عمل الشيء على أحسن وجه، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»، وهو قريبٌ من الإحسان الذي سبق الكلام عنه، والعملُ القليل المُتَقَنُّ خيرٌ من العمل الكثير غير المُتَقَنِّ، وهذا في كل عملٍ من عمل الدنيا والآخرة.

صُنِ اللِّسَانَ وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَا (١٢) أَحَبُّ كُلِّ مُسْلِمٍ كُنْ نَاصِحًا

(صُنِ اللِّسَانَ) أي احفظه من الحرام، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقد سئل النبي ﷺ أي المسلمين خير؟ فقال: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّ «الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وقد كان السلف يحذرون أشدَّ الحذر من إطلاق اللسان لمعرفة خطرهم.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما من شيء أحقَّ بطول سجن من لسان.

وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله.

وقد كان نبينا ﷺ أحفظ الناس للسانه، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ﷺ.
ولما قالت عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا.
قال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته».

وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إنه بلغني أن الإنسان ليس على شيء من جسده أشد حنقاً أو غيظاً يوم القيامة منه على لسانه إلا ما قال به خيراً أو أملى به خيراً.

مَا إِنْ نَدِمْتُ عَلَى سُكُوتِي مَرَّةً وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الْكَلَامِ مَرَارًا

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ فَضَّةٍ بَيْضًا بِلاَ تَبَاسٍ
إِذَا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبِ فَافْهَمْ هَذَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبِ

(وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَا) يجب كذلك حفظ الجوارح، وهي سبعٌ على عددِ أبواب جهنم والعياذ بالله، وهي السمع والبصر واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج، وقد جمعها الهلالي - رحمه الله - في نصيحته في بيت واحد فقال:

وَهِيَ لِسَانٌ ثُمَّ فَرْجٌ بَطْنٌ يَدٌ وَرِجْلٌ ثُمَّ عَيْنٌ أُذُنٌ
سَبْعُ كَأَبْوَابِ الْجَحِيمِ فِي الْعَدَدِ فَارْعَ جَمِيعَهَا وَأَلْزِمَهَا السَّدَدُ
فَإِنَّهَا مَسْئُولَةٌ فِي الْآجِلِ شَاهِدَةٌ بِمَا جَنَتْ فِي الْعَاجِلِ

فَمَنْ عَصَى بِوَاحِدٍ مِنْهَا فَقَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ جَحِيمٍ قَدْ وَقَدَ

فيحفظ بصره عما لا يحل النظر إليه؛ من النساء، ومن عورات الناس وعيوبهم، ويحفظ سمعه عن الحرام كالغيبة والنميمة والكذب، ويحفظ لسانه عما لا يجوز النطق به من غيبة ونميمة وكذب وغير ذلك، ويحفظ بطنه عن الحرام كالطعام المغصوب والمسروق، وكالخمير والميتة والدم ولحم الخنزير وما عطف عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [النحل: ١١٥]، ويحفظ فرجه من الزنا والحرام، ويحفظ يده من الحرام، ويحفظ رجله من السعي بها للحرام، فهذا كله داخل في قوله: (وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَا).

(أَحَبُّ كُلِّ مُسْلِمٍ) قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» فلا يتحقق الإيمان الكامل لأحد من المسلمين حتى يكون على هذه الصفة، يحب لأخيه ما يحبه لنفسه من أنواع الخير في الدنيا والآخرة، ويكره لأخيه ما يكرهه لنفسه من الشر، فإن رأى في أخيه خيراً، سدده وأعانه، وإن رأى نقصاً في دينه اجتهد في إصلاحه، وهذا إنما يأتي من كمال سلامة الصدر وهو الذي يقتضيه الإيمان.

(كُنْ نَاصِحًا) النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الخير للمنصوح له، وإرشاده إلى مصالحه، وقد قال النبي ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» أي عماد الدين وقوامه النصيحة، فقال الصحابة: «لَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

وقال جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه-: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

والنصح منهج الأنبياء والمرسلين، فقد قال هود عليه السلام لقومه:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وكذلك كان الأنبياء عليهم السلام، وهو منهج من سار على دربهم من

العلماء والصالحين، فهذا مؤمن آل فرعون قال لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَتَمَرُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وسار على ذلك العلماء، فهذا أبو الوليد الباجي له نصيحة لولديه، ذكر فيها لهما

أنه لا أحد أنصح للولد من والده، وأبو حامد الغزالي له نصيحة لأحد طلبته

المتقدمين اسمها "أيها الولد"، وابن الجوزي له نصيحة كتبها لابنه اسمها "لفتة

الكبد في نصيحة الولد"، وأبو إسحاق الإلبيري نصح لأبي بكر في التائية التي

مطلعها:

تَفُتُّ فُوَادَكَ الْيَّامُ فَتًّا وَتَنَحُّتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحًّا

وفيها يقول:

أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا
إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْتَا

وفيها يقول:

وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا وَنَبَذْتَ نَصَحًا وَمِلْتَ إِلَى حُطَامٍ قَدْ جَمَعْتَا
لَسَوْفَ تَعْضُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

والشيخ حماد بن أَلَمِين الشنقيطي - رحمه الله - له النصيحة يقول فيها:

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ دُونَكَ مِنْهُ ذَا الَّذِي أَبَيَّنْ
نَصِيحَةٌ مِنْ وَالِدٍ خَفِيٍّ بِكَ هُدَيْتَ الرُّشْدَ مِنْ بُنَيٍّ

فينبغي للمسلم أن يكون ناصحًا لإخوانه، يحب لهم الخير.

تَقَبَّلِ النَّصِيحَ مِنَ الثَّقَاتِ (١٣) وَكُنْ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَاةِ

بعد أن أرشدك إلى أن تكون ناصحًا بقوله: **(كُنْ نَاصِحًا)** أرشدك إلى أن تقبل نصيحة الثقات فقال: **(تَقَبَّلِ النَّصِيحَ مِنَ الثَّقَاتِ)**.

ينبغي للمسلم أن يقبل نصيحة الثقات، وألا يكون ممن قال الله - عز وجل - عنهم: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾** [البقرة: ٢٠٦]، ولا ممن قال الله - عز وجل - عنهم: **﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾** [الصفات: ١٣]، بل ينبغي إذا نصحه الناصح أن يقول: "جزاك الله خيرًا"، وقد قال مسعود - رضي الله عنه -: **«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَقُولَ لَهُ أَخُوهُ: اتَّقِ اللَّهَ، فَيَقُولَ: عَلَيْكَ بِنَفْسِكَ مِثْلَكَ يُوصِينِي»** فالمسلم إذا ذُكِّرَ تَذَكَّرَ، وإذا نُصِحَ قَبِلَ النصيحة وشَكَرَ الناصحَ، وأسرع إلى الإجابة ورجع إلى الحق.

(وَكَُنْ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَاةِ) أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر.

وقد افتتح الله أعمال المفلحين بالصلاة فقال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾** [المؤمنون: ١-٢]، وختمها بالصلاة فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [المؤمنون: ١١-٩].

وقد ذكر النبي ﷺ الصلاة يومًا فقال: **«من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً إلى يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ وكان يوم القيامة مع فرعون وهامان وأبي بن خلف»**.

فينبغي للمسلم أن يحرص على المحافظة على الصلاة وأن يأتي بها على أكمل الوجوه، ويكون ذلك بثلاثة أمور: سابقة ومقارنة ولاحقة.

- فمن الأمور السابقة أي التي تسبق الصلاة وتحصل بها المحافظة عليها: الاستعداد لها بالطهارة والتوجه إلى المسجد قبل الصلاة.

- ومن الأمور المقارنة: أداء فرائض الصلاة وسُنَنِهَا، والخشوع فيها، وتفريغ القلب لها.

- ومن الأمور اللاحقة: الاحتراز بعدها من المعاصي التي قد تنقص ثوابها.

وَوَقْتُكَ أَشْغَلُهُ بِالْإِنْتِفَاعِ (١٤) وَالْمَالُ فَاحْفَظْهُ عَنِ الضَّيَاعِ

(وَوَقْتُكَ أَشْغَلُهُ بِالْإِنْتِفَاعِ) قال ابن الجوزي - رحمه الله -: ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يُضَيِّع منه لحظة في غير قربة، ويُقَدِّم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل.

وقد حثنا النبي ﷺ على اغتنام الأوقات فقال: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغَنَّاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ».

وقال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ».

وأخبرنا ﷺ أنه «لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن أربعٍ» وذكر منها: «عن عُمرِه فيما أفناه» فهذا يحملنا على أن نحرص على اغتنام أوقاتنا في الخير والطاعة، فإن ما مضى من الوقت لا يرجع.

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُيِّنَ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ

ومن أعظم ما يحمل على ذلك: النظر في أخبار السلف في حرصهم على

أوقاتهم، وفي قيمة الزمن عندهم، وقد قال الحسن البصري: أدركت أقوامًا كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على درهمه.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه المحدث المشهور أبي حاتم: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: كنا مع الثوري جلوسًا بمكة، فوثب وقال: النهار يعمل عمله. وأخبارهم في ذلك كثيرة.

الْوَقْتُ كَالسَّيْفِ وَالْأَعْمَالُ فِيهِ عَصَا **فَبَادِرُوا الْخَيْرَ إِنَّ الْعُمَرَ يَخْتَرِقُ**

(وَالْمَالُ فَاحْفَظْهُ عَنِ الضَّيَاعِ) جعل الله المال قيامًا للناس، تقوم به مصالح دينهم

ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ

قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

لذا حرم الاعتداء عليه، قال ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمِّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ».

ويدخل في إضاعة المال بذله وإنفاقه في غير وجهه المأذون فيه شرعًا، ويدخل فيه أيضًا إهماله وعدم العناية به حتى يكون عرضة للسَّرَاق والضياع.

بِهَمَّةٍ تَعَلَّمِ الْمُفِيدَا (١٥) وَطَالِعِ الْكُتُبَ تَنَلْ مَزِيدَا

حث الناظم -وفقه الله- في هذا البيت على طلب العلم النافع بهمة، ومطالعة الكتب التي هي طريق من طرق تحصيل العلم، هنا أمران:

الأول: تَعَلَّمُ العلم النافع، وأعلى ذلك وأسنأه وأرفعُه علمُ الكتاب والسنة، الذي عَظَّمَ الله شأنه وشأن أهله، واعتَدَّ بشهادتهم على وحدانيته، وقرنها بشهادته وشهادة ملائكته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وفي هذا من شرف أهل العلم ورفعة قدرهم ما لا تحيط به عبارة.

وأخبر سبحانه عن رفعتهم، فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأخبر سبحانه أنهم أهل خشيته دون غيرهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن أعظم الآيات الدالة على شرف العلم قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] انظر كيف تجد تحت هذه الآية أنه ما دام آمن أهل العلم، فسواء آمن غيرهم أم لم يؤمنوا، تخيل عالمًا يقول: إذا حضر عندي فلان فما أبالي حضر غيره أم لم يحضر، كم فيه من الشرف له! والله المثل الأعلى.

ومن الآيات الدالة على شرف العلم وشرف أهله قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] انظر كيف أن الله تعالى يُري رأيهم، لو أن عالمًا سأل سائل، فقال العالم في جوابه: فلان - من طلبته - يرى كذا وكذا. لا شك أن هذه تركية عظيمة لهذا الطالب، والله المثل الأعلى.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» وهذا من أعظم مناقب أهل العلم، فإن

الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم. وفيه تنبيه على أنهم أقرب الناس إلى الأنبياء، لأن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث. وقد ساق ابن القيم - رحمه الله تعالى - في مفتاح دار السعادة أكثر من مئة وخمسين وجهًا في بيان فضل العلم وشرفه ووجوه ذلك وآثاره، فامتع وأطرب وأتى بكل بديع.

والأمر الآخر في بيت الناظم: الهمة في طلب العلم.

والهِمَّةُ: قُوَّةُ تَوَجُّهِ الْقَلْبِ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَلَا يَنَالُ الْعِلْمَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَالِي الْهِمَّةِ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يَنَالُهُ
مَنْ هَمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ
فَاخِرُضْ لِتَبْلُغَ فِيهِ حَظًّا وَافِرًا
وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الْمَنَامِ وَغَلَسِ

وقال المتنبي:

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَارًا
تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
وقال أيضًا:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ
فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ

وقد قال بعض العلماء وقد بلغ خمس عشرة سنة:

أَبْعَدَ بُلُوغِي خَمْسَ عَشْرَةَ أَلْعَبُ
وَلِي نَظَرٌ عَالٍ وَنَفْسٌ أَبْيَةُ
وَعِنْدِي أَمَالٌ أُرِيدُ بُلُوغَهَا
وَلِي أُمَّةٌ مِنْكُودَةُ الْحَظِّ لَمْ تَحْدُ
وَأَلْهُو بِلَذَاتِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَبُ!
مَقَامًا عَلَى هَامِ الْمَجَرَّةِ تَطْلُبُ
تَضِيعُ إِذَا لَاعَبْتُ دَهْرِي وَتَذْهَبُ
سَبِيلًا إِلَى الْعَيْشِ الَّذِي تَتَطَلَّبُ
فَمَا طَابَ لِي طَعْمٌ وَلَا لَذٌّ مُشْرَبُ
عَلَى أَمْرِهَا أَنْفَقْتُ دَهْرِي تَحْسُرًا

وَلَا رَاقٍ لِي نَوْمٌ وَإِنْ نِمْتُ سَاعَةً فَإِنِّي عَلَى جَمْرِ الْغَضَا أَتَقَلَّبُ

ومن أعظم ما يُعَلِّي الهمة النظر في همم العلماء المتقدمين والمتأخرين.

هذا الإمام الحافظ ابن منده - رحمه الله - طاف الشرق والغرب في طلب العلم مرتين، رحل وعمره عشرون سنة، ورجع من رحلته وعمره خمس وستون سنة، فكانت رحلته خمسا وأربعين سنة، ثم عاد إلى وطنه شيخاً فتزوج وهو ابن خمس وستين، ورزق الأولاد، وحدث بالعلم الكثير.

وهذا الإمام مالك قلما صلى الصبح إلا بوضوء العشاء تسعاً وأربعين سنة، وذلك لاشتغاله بالعلم والعبادة، وكان في ابتداء طلبه العلم قد ألم به الفقر حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم.

والخطيب البغدادي قرأ صحيح البخاري كله على إسماعيل الحيري في ثلاثة مجالس، قال الذهبي في تاريخ الإسلام: وهذا شيء لا أعلم أحداً في زماننا يستطيعه.

وهذا أبو الوفاء ابن عقيل كان يقول: إني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين. وكان ينشد وهو في الثمانين:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَأَنَّمَا اغْتَاصَ رَأْسِي غَيْرَ صَبْغَتِهِ وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ

هكذا ينبغي أن تكون الهمم.

هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا لَيْسَ كُلُّ الرَّجَالِ تُدْعَى رَجَالًا

والسعيد من جعل الله همته في مرضاته.

قيل لَطْفِيْلِي: تَمَنَّ فَقَالَ: نَدَامَى تَسْكُنُ صَدُورَهُمْ - يعني يعاملونه معاملة رفيقة

ولا يتردون من يأتيهم - وتغلي قدورهم، ولا تغلق دُورهم.

وقيل آخر تمنّ فقال: أن يجعل الله الكتيب الفلاني حبًّا؛ لينقله إلى آل فلان ليأخذ أجرته.

ويقول جميل بُيِّنَ مَبْلَغَ هِمَّتِهِ:

يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْزَوَةَ وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أَرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

هذا قدر همته، نسأل الله العافية.

وقد قال عمر بن الخطاب: لا تَصْغُرَنَّ هِمَّتُكُمْ، فَإِنِّي لَمْ أَرْ أَقْعَدَ عَنِ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَمِ.

وأين هذه الهمم من همة عمر بن عبدالعزيز حين قال: إن لي نفسًا تواقّة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلّتها تافت إلى الخلافة، فلما نلّتها تافت إلى الجنة.

وَاحْتَرِمِ الْكِتَابَ وَالْمُعَلَّمَ (١٦) وَأَكْرِمَنَّ مَا اسْتَطَعْتَ الْعِلْمَا

بعد أن حثّك على مطالعة الكتب في قوله: (وَطَالِعِ الْكُتُبَ تَنْلُ مَزِيدًا) حثّك على توقيرها فقال: (وَاحْتَرِمِ الْكِتَابَ).

الكتب هي أوعية العلم التي فيها يُحْفَظُ، فينبغي لطالب العلم صونُ كتب العلم وحفظها وإجلالها، وقد قالوا: لا تجعل كتابك بوقًا ولا صندوقًا أي لا تطويه فيصير كالقوق، ولا تحشّه بودائعك ولا تكثّر من وضع الأشياء فيه فيصير كالصندوق.

وينبغي لطالب العلم أن يضع الكتاب إذا وضعه بلطف وعناية، ولا يرميه، وقد فعله رجل عند أحمد ابن حنبل فغضب الإمام أحمد وقال: هكذا يُفْعَلُ بكتب

الأبرار!

ثم حَثَّكَ على توقير المعلم فقال: **(وَالْمُعَلِّمًا)** المعلم له حقٌّ عظيم، وقد نقل ابن القيم - رحمه الله - عن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أنه قال: الشيخ والمعلم والمؤدب أبو الروح، والوالد أبو الجسم.

وشاهد هذا في القرآن في قراءة في أبي بن كعب رضي الله عنه: النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبُّ لَهُمْ.

وهذا المعنى يؤديه قوله تعالى في تمام الآية: **﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** [الأحزاب: ٦] فثبتت أمومة أزواجه لهم فرعٌ عن ثبوت أبوتهم ﷺ، وشاهده من السنة قوله ﷺ: **«إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أَعْلَمُكُمْ»**.

(وَأَكْرَمَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ الْعِلْمَا) العلماء لهم حقٌّ عظيمٌ على الأمة أثبتته الشريعة وأمرت برعايته، وقد قال النبي ﷺ: **«لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُحِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا»** يعني حقه.

وقال طاووس بن كيسان: إِنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تُوقَّرَ الْعَالِمُ.

فمن حق العلماء على الأمة إكرامهم وتوقيرهم وإجلالهم، فهم حملة الشريعة ومرجع الأمة، الذين يُبَصِّرُونَ الخلق بدينهم، يُعَلِّمُونَ الجاهل ويُذَكِّرُونَ الناسي، وَيَكْشِفُونَ الفتن، ولولا فضل الله على الخلق بهم لاندرس الإسلام وذهبت معالمه، ولا خير في أُمَّةٍ لا توقر علماءها، فتوقير العلماء وإجلالهم تُحَفِّظُ الشريعة وتُنَشِّرُ أحكامها، وَيَكْثُرُ سواد أهل السنة، وتَأْتَلَفُ كلمة المسلمين، وتذهب شوكة المنحرفين.

وقد أمسك ابن عباس - رضي الله عنهما - يوماً بركاب زيد بن ثابت رضي الله

عنه، فقال زيد -رضي الله عنه-: أتمسك لي وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إنّا هكذا نصنع بالعلماء.

وقال محمد بن سيرين: رأيتُ عبد الرحمن بن أبي ليلى وأصحابه يُعَظِّمونه ويُسَوِّدونه مثل الأمير.

وقال يحيى الموصلي: رأيتُ مالك بن أنسٍ غير مرة وكان بأصحابه من الإعظام له والتوقير له -أي ما يُشبه توقير الملوك- وإذا رفع أحد صوته صاحوا به. قال ابن الخياط يمدحُ مالك بن أنس:

يَدْعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاحِيسَ الْأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التَّقَى فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

أَقْبَلْ وَأَنْصِتَنَّ لِلْمُحَدَّثِ (١٧) وَقَدِّمِ الْأَكْبَرَ فِي التَّحَدُّثِ

(أَقْبَلْ وَأَنْصِتَنَّ لِلْمُحَدَّثِ) حَثَّ النَّاظِم -وفقه الله- على الإقبال على من يحدثك والإنصات له، فَمِنْ المروءة أَنْ يُقْبَلَ الْأَخُ عَلَى أَخِيهِ إِذَا حَدَّثَهُ، وَأَنْ يَنْصِتَ لَهُ، وَأَوَّلُ الْعِلْمِ حَسَنُ الْإِسْتِمَاعِ، وَلَا يَنْتَفِعُ الرَّجُلُ بِالْقَوْلِ مَعَ سُوءِ الْإِسْتِمَاعِ، فَمِنْ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ حُسْنُ الْحَدِيثِ إِذَا حَدَّثْتَ، وَحُسْنُ الْإِسْتِمَاعِ إِذَا حُدِّثْتَ.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستقبلونه ﷺ ويقبلون عليه بوجوههم إذا حدثهم، في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ» أي مُقْبِلِينَ عَلَيْهِ. وقد ترجم عليه البخاري بقوله: بَابُ يَسْتَقْبِلُ الْإِمَامُ الْقَوْمَ وَاسْتَقْبَالُ النَّاسِ الْإِمَامَ إِذَا خُطِبَ وَاسْتَقْبَلُ ابْنُ عَمْرٍو وَأَنْسٍ -رضي الله عنهم- الإمام. لذا كان من السنة أَنْ تَسْتَقْبِلَ الْإِمَامَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا خُطِبَ، قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ: السَّيِّئَةُ عِنْدَنَا أَنْ

يستقبل الناس الإمام يوم الجمعة إذا أراد أن يخطب من كان منهم يلي القبلة وغيرها.

وقد وردت في ذلك أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف، والعمل على هذا عند أهل العلم كما ذكر الترمذي في جامعه.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يُنصتون له إذا حدثهم، فكانوا في مجلسه كأنما على رؤوسهم الطير أي يسكنون ولا يتحركون من حُسن استماعهم وتوقيرهم مجلسه، والطير لا يقع إلا على ساكن.

(وَقَدَّمَ الْأَكْبَرَ فِي التَّحَدُّثِ) السُّنَّةُ تقديم الأكبر في الحديث، والأصل في ذلك ما في الصحيحين عن سهل بن أبي حثمة عن رجال من كبراء قومه: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةَ بْنَ مَسْعُودٍ -رضي الله عنهما- خَرَجَا إِلَى خَيْبَرَ مِنْ جَهْدِ أَصَابِهِمْ، فَأَتَى مُحَيِّصَةُ فَأُخْبِرَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَهْلٍ قَدْ قُتِلَ وَطُرِحَ فِي عَيْنٍ، فَأَتَى يَهُودَ فَقَالَ: أَنْتُمْ وَاللَّهِ قَتَلْتُمُوهُ، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا قَتَلْنَاهُ، فَأَقْبَلَ هُوَ وَأَخُوهُ حُوَيْصَةُ -وهو أكبر منه- وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَهَبَ مُحَيِّصَةُ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ الَّذِي كَانَ بِخَيْبَرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُحَيِّصَةَ: «كَبَّرَ كَبَّرَ» يُرِيدُ السَّنَّ، فَتَكَلَّمَ حُوَيْصَةُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مُحَيِّصَةُ.

وقوله ﷺ «كَبَّرَ» معناه: لبدأ الأكبر بالكلام، و«كَبَّرَ» الثانية تأكيد للأولى تنبيهاً على شرفِ السَّنِّ، و«يريد السَّنَّ» مدرج في الحديث لتفسير قوله ﷺ: «كَبَّرَ»، وقد ترجم عليه الإمام البخاري بقوله: بابُ إكرام الكبير ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال وهذا مطابقٌ لقول الناظم -وفقه الله-: (وَقَدَّمَ الْأَكْبَرَ فِي التَّحَدُّثِ) فهذا الحديث هو الأصل في تقديم الأكبر في التحدث.

وفي حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «الْبَرَكَةُ مَعَ أَكْبَرِكُمْ» وَصَحَّحَ جَمَاعَةٌ وَقَفَهُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما-، وليس هذا خاصًا بالتحدُّث، بل كذلك يُقَدَّمُ الأَكْبَرُ في الدخول، وقد ترجم الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع بقوله: تقديم الأكابر في الدخول وأخرج تحته عن مالك بن مِغْوَلٍ قال: كنتُ أمشي مع طلحة بن مُصَرِّفٍ، فصرنا إلى مضيق، فتقدمني، ثم قال لي: لو كنتُ أعلم أنك أكبرُ مني بيوم ما تقدمتك. وأخرج عن الفضل بن موسى أنه قال: انتهيتُ أنا وعبدالله بن المبارك إلى قنطرة، فقلت له: تَقَدَّمْ، وقال لي: تَقَدَّمْ، فحاسبته، فإذا أنا أكبرُ منه بستين. وقد كان الحسن بن صالح وأخوه عليُّ تَوَآمِينَ، وقد خرج الحسن من بطن أمه قبل علي، فلم يُرَ الحسن مع علي في مجلس إلا جلس عليُّ دونه، ولم يكن يتكلم مع الحسن إذا اجتمعا في مجلس. وقوله هنا: (وَقَدَّمَ الْأَكْبَرَ فِي التَّحَدُّثِ) هو صورة من صور تبجيل الكبير، فهو داخل في قوله قَبْلُ:

بَجَلٍ كَيِّرًا وَارْحَمِ الصَّغِيرَا (٨) وَسَاعِدِ الضَّعِيفَ وَالْفَقِيرَا

ثم قال -وفقه الله-:

بِالْخَيْرِ فَانْطِقَنَّ وَإِلَّا فَاصْصُمْتَ (١٨) وَقَبْلَ نَقْلِ خَيْرٍ تَبَيَّنَتْ

(بِالْخَيْرِ فَانْطِقَنَّ وَإِلَّا فَاصْصُمْتَ) عقد بهذا قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» وهذه كلمة جامعة من جوامع كلمه ﷺ، مقتضاها

وجوب حفظ اللسان من الكلام إلا في خير، فمن أراد أن يتكلم فليُنظر: فإن كان

هذا الذي يريد أن يقوله خيرًا يثاب عليه فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خير يثاب عليه فليمسك عن الكلام، وليصن لسانه، وقد قال الناظم فيما تقدم:

صُنِ اللِّسَانُ وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَا (١٢) أَحَبُّ كُلِّ مُسْلِمٍ كُنْ نَاصِحًا

(وَقَبْلَ نَقْلِ خَبَرٍ تَثَبَّتْ) أي لا تعجل بنقل الأخبار، بل تأكد من صحتها قبل نشرها.

وقد أمر الله تعالى بالتثبت والتبيين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ

فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

وبهذا التثبت والتبيين وعدم التسرع، يُعرف دين العبد وعقله ورزاقته، وقد قال

ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

ويتأكد التثبت قبل نقل الخبر إذا كان المنقول من حديث النبي ﷺ، فقد قال

ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَذِبٌ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ

مِنَ النَّارِ».

بل جُرم الناقل للكذب على النبي ﷺ من غير تثبت كجُرم الكاذب، قال

ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ» وهما واضع

الحديث وناقله، أي الذي افتراه والذي نشره، ففي الحديث التغليظ في من نسب

إلى النبي ﷺ شيئًا لم يقله ولو كان ناقلًا.

وَقَدْ مَن صَلَاةَ الْإِسْتِخَارَةِ (١٩) إِذَا هَمَمْتَ ثُمَّ الْإِسْتِشَارَةَ

الاستخارة: طلب العبد من الله تعالى أن يختار له، وقد كان النبي ﷺ يُعلم

أصحابه - رضي الله عنهم - الاستخارة في الأمور كلها كما يُعلمهم السورة من

القرآن، وفي هذا العناية التامة بالاستخارة، وأنها متأكدة مُرغَّبٌ فيها، حتى قال

بعض العلماء: لا ينبغي لأحد أن يُقدِّم على أمرٍ من أمور الدنيا حتى يسأل ربه الخيرة في ذلك.

وتوفيق الله عبده للاستخارة علامة سعادة العبد وإرادة الله به الخير، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهَ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» أخرجه أحمد والترمذي وحسنه الحافظ ابن حجر.

فمن همَّ بأمرٍ شرع له أن يركع ركعتين من غير الفريضة ثم يدعو بالدعاء الذي أخرجه البخاري من حديث جابر - رضي الله عنه - قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ» قَالَ: «وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ».

وهذا الدعاء العظيم الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو عَوْضٌ لهذه الأمة عما كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام إذا بدت لأحدهم حاجة من نكاح أو سفر أو بيع. فقد كانوا يستقسمون بالأزلام ويزجرون الطير؛ طلباً لعلم ما قُسم لهم في الغيب، وهذا من ضلالهم وسفاههم، وأما أمة الإسلام فقد

هداهم الله تعالى إلى سبل السعادة في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك هذا الدعاء العظيم الذي هو توحيدٌ وافتقارٌ وتوكلٌ وعبودية
وسؤالٌ لمن بيده الخير كله، الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات
إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم
يستطع أحد إرسالها إليه، وقد تضمن هذا الدعاء توحيد الله تعالى، والتوكل عليه،
وتفويض الأمور إليه، والرضا به وباختياره سبحانه وتعالى، وتضمن الإقرار
بصفات كماله سبحانه وتعالى من العلم والقدرة والإرادة، فلذلك كان علامة
السعادة والتوفيق، وما ندم من استخار ربه بعلمه، واستقدره بقدرته، وسأله من
فضله العظيم.

قال جابر - رضي الله عنه -: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا
الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ.
(في الأمور كلها) هذا عام أريد به الخصوص، لأنه لا يُستخار في فعل واجب
أو ترك محرم.

والحديث يتناول العظيم من الأمور والحقير، فربَّ حقيرٍ يترتب عليه الأمر
العظيم.

وقوله: «فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ» أي ليصل ركعتين من غير
الصلوات المفروضة، وذلك لتكون صلاته مفتاحاً لنيل الخير وسبباً لإيجاد
المطلوب وتحقيق المرغوب.

ويقراً المستخير ما يسره الله من القرآن، دون التزام شيء معين، لأنه لم يأت
في شيء من طرق الحديث تعيين شيء من آي القرآن وسوره، قال بعض العلماء:

يقرأ بالكافرون والإخلاص. وقال بعضهم: يقرأ في الأولى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، ويقرأ في الثانية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وقيل غير ذلك. والصواب أنه ليس في ذلك تخصيص لعدم وروده، والأصل عدم التحديد إلا بدليل.

وقوله ﷺ: (ثُمَّ لِيُقُلْ) ظاهره أن الدعاء يكون بعد الفراغ من الصلاة أي بعد أن يُسَلِّمَ، ويحتمل أن ذلك يكون بعد التشهد قبل السلام؛ لأن أكثر دعائه ﷺ كان قبل السلام؛ والأول أولى لأن (ثم) للترتيب مع الانفصال فيكون الدعاء بعد السلام.

ويشرع أن يرفع يديه عند الدعاء؛ لأن رفعهما من أسباب الإجابة. ومن كان لا يحفظ هذا الدعاء فليقرأه من كتاب، لا حرج عليه في ذلك، وينبغي أن يجتهد الداعي في إحضار قلبه، وفي الخشوع لله، والصدق في الدعاء، والتأمل في معاني هذا الدعاء العظيم.

وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ» أي أطلب منك أن تختار لي الخير من الأمور بعلمك المحيط بكل شيء.

«وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ» أطلب منك أن تُقَدِّرَني عليه بقدرتك على كل شيء.
«وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ» أطلب منك أن تُكْرِمَني بفضلك العظيم، فأنت المتفضل وحدك لا شريك لك.

«فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فيه الاعتراف

بقدره الله تعالى التامة وعلمه الكامل، والاعتراف بعجز العبد وجهله وافتقاره إلى ربه سبحانه وتعالى.

«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي» ويسميه، فيقول: اللهم إن كنت تعلم أن زواجي أو أن سفري أو أن شرائي كذا أي إن كان في علمك أن هذا الأمر خير لي فأقْذُرْهُ لي ويسِّرْهُ لي فالشك هنا في «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ» هو بالنسبة إلى الداعي، لا إلى علام الغيوب، فهو يرجع إلى عدم علم العبد بعاقبة أمره، أما الرب سبحانه وتعالى فعلمه محيط بكل شيء.

«خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي» قَدَّمَ الدين لأنه الأهم، فإذا صلح الدين فالخير حاصل، وإن اختل فلا خير بعده.

«أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ» هذا شك من الراوي، ولم تختلف طرق الحديث في ذلك، وقد رجح ابن القيم في جلاء الأفهام اللفظ الأول بأن يقول: «خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي»

«فَأَقْذُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي» أي اجعله لي مقدراً ميسراً.

«ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ» البركة: كثرة الخير ودوامه، أي كثرة لي وأدمه عليّ.
«وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي» فيه سؤال الله أن يصرف هذا الأمر عن باله إن كان شراً حتى لا يبقى قلبه بعد صرف هذا الأمر عنه متعلقاً به.

«وَاصْرِفْهُ عَنِّي» اصرف خاطري عنه حتى لا يكون سبب اشتغال البال.
«وَأَقْذُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ» أي اجعل الخير لي مُقَدَّراً حيث كان الخير من زمان أو مكان.

«ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ» أي ارزقني أن تسكن نفسي إلى قضائك.

وإذا أتى العبد بالاستخارة على وجهها، فإنَّ ما استخار الله فيه إن كان خيراً فسييسره الله، وإن كان شراً فسيصرفه الله عنه، فيمضي بعد الاستخارة لما هو عازم عليه، والخير فيما يختاره الله تعالى.

ويستحب للعبد أن يشاور غيره من أهل الحكمة والعقل ممن يثق بدينه ومودته فيما يريد الإقدام عليه، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً وأصوبهم رأياً: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال قتادة: ما تشاور قوم يتغون وجه الله إلا هُتدوا إلى أرشد أمرهم. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ما ندم من استخار الخالق وشاور المخلوقين وثبت في أمره. وقد قال الشاعر:

شَاوِرْ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ يَوْمًا وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَاتِ
فَالْعَيْنُ تَلْقَى كِفَاحًا مَنْ نَأَى وَدَنَا وَلَا تَرَى نَفْسَهَا إِلَّا بِمِرَاةٍ

ويستحب الجمع بين الاستخارة والاستشارة، وقد اختلف العلماء هل يُقدَّم الاستخارة أو الاستشارة؟ والأمر في ذلك واسع، ولم يرد ما يُقَطَّعُ معه بأحد القولين، ويدل لما ذكره الناظم من تقديم الاستخارة قوله ﷺ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ» والفاء للترتيب بلا فاصل، فهذا يدل على تقديم الاستخارة، ويشهد له ما في صحيح مسلم من أن زينب بنت جحش -رضي الله عنها- لما انقضت عدتها من زيد، وأرسل النبي ﷺ يخطبها قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها.

وتقديم الاستخارة على الاستشارة هو اختيار الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين رحمهما الله، لكن مَنْ هَمَّ بأمر وقابل صالحًا ذا رأيٍ قبل استخارته فلا مانع من أن يستشيرَه، فالأمر في هذا واسع.

وَأَتَّبِعِ الْخَطَا بِاعْتِدَارٍ (٢٠) وَأَتَّبِعِ الذَّنْبَ بِالِاسْتِغْفَارِ

(وَأَتَّبِعِ الْخَطَا بِاعْتِدَارٍ) مِنْ أَخْلَاقِ الْكِبَارِ: الاعتذارُ لمن أخطأ في حقه وطلبُ الصّفح منه، فبذلك تتحقّق مقاصد الشرع من الألفة والمحبة وإزالة البغضاء والحقّد من القلب، وفيه نفي العُجب عن النفس.

وهذا نبي الله موسى -عليه السلام- لما اشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا، وخالف موسى -عليه السلام- الشرط اعتذر وقال: ﴿لَا

تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

قال الشاعر:

إِذَا اعْتَذَرَ الْجَانِي مَحَا الْعُذْرُ ذَنْبُهُ وَكَانَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعُذْرَ جَانِيَا

وينبغي لمن اعتذَرَ إليه أن يقبل عذر المعتذر ويقل العثرة، ويستر الزلة، ومما يُنسب للإمام الشافعي:

**اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا
لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ
إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا
وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا**

(وَأَتَّبِعِ الذَّنْبَ بِالِاسْتِغْفَارِ) من وقع في ذنب فإنه يجب عليه أن يبادر إلى التوبة

والاستغفار، فإن التوبة تمحو الصغائر والكبائر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا

أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وينبغي للعبد ألا يقنط من رحمة ربه، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب التوبة مفتوح، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: من آيسَ عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل.

وقال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦].

وقال في شأن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤].

وقال في شأن الكفار الذين حرَّقوا أولياءه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري -رحمه الله-: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

وهنا مسألة مهمة وهي أنه لا ينبغي للمسلم أن يؤخر التوبة ويؤجلها ويسوف فيها، بل الواجب المبادرة إلى التوبة والمسارة إليها، وإلى ذلك أشار الناظم بقوله: (وَاتَّبِعِ الذَّنْبَ بِالْإِسْتِغْفَارِ)؛ لأن الإنسان لا يدري ما يعرض له في هذه

الحياة، لذا فالواجب على الإنسان أن يبادر إلى التوبة قبل فوات أوانها، وقبل أن يحال بينه وبينها بالموت أو بطلوع الشمس من مغربها، ولا يجوز له تأخيرها في أي حال من الأحوال، بل إن تأخيرها يُعدُّ معصية ينبغي أن يُتاب منها، وقُلَّ أن تخطر هذه المسألة ببال العاصي التائب كما يذكر ابن القيم، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبقَ عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا يُنجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، والذي لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه.

لذلك ما أجمل أن نقتدي بالنبي ﷺ في هذا الدعاء الذي كان يقوله قبل السلام من الصلاة، ففي صحيح مسلم أنه ﷺ كان من آخر ما يقول في صلاته بين التشهد والسلام: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»**.

وهذا التعميم والشمول فائدته أن تأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلم، بحيث لا تدعُ التوبة ذنباً إلا تناولته، ولا ريب أن هذا من النصح في التوبة الذي أمر الله - عز وجل - به قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** [التحریم: ٨].

وقد بين ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين أن النصح في التوبة يتضمن ثلاث أشياء:

١ - تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، كأن تدعو بالدعاء السابق أو تدعو بما كان يدعو به النبي ﷺ أيضاً في صلاته: **«اللَّهُمَّ**

اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي
خَطِيئَتِي وَعَمْدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا
أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

٢- إجماعُ العزمِ والصِّدْقِ بكليته على التوبة بحيث لا يبقى عنده تردُّدٌ ولا
تَلَوُّمٌ ولا انتظار، بل يَجْمَعُ على التوبة كُلَّ إرادته وعزيمته مبادراً بها.

٣- تَخْلِيصُ التوبة من الشوائبِ والعللِ القادحة في إخلاصها، ووقوعها
لمحض الخوف من الله تعالى، وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرغبة مما عنده، لا
كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة ومنصبه ورياسته، أو لحفظ حاله أو حفظ قُوَّته
وماله، أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء،
أو لقضاء نَهْمته من الذنب أو لإفلاسه وعَجْزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في
صِحَّتِها وخلوصها لله عز وجل.

بهذه الأمور الثلاثة يكون العبد قد أتى بأكمل ما يكون من التوبة، والتوفيق بيد
الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يَمُنَّ علينا بالتوبة النصوح، وأن يهدينا
لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا
سيئها إلا هو.

أَفْشِ السَّلَامَ صَاحِبِ الْأَخْيَارِ (٢١) لَا تُؤْذِ إِنْسَانًا أَخْصَ الْجَارِ

(أَفْشِ السَّلَامَ) إفشاءُ السَّلَامِ: إشاعته ونشره بأن تُسَلِّمَ على من لَقِيت، وأن لا
تُخْصَّ به أحداً دون أحد، وقد كان أول شيءٍ تكلم به النبي ﷺ حين قدم المدينة
قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا

بالليل والناس نيامً، تدخلوا الجنة بسلام».

ومن أشرار الساعة وعلامات دُئوها أن تكون التحية للمعرفة، بأن يسلم الرجل على من يعرف، ويترك من لا يعرفه لا يسلم عليه، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَارِ السَّاعَةِ: أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا لِلْمَعْرِفَةِ».

وفي رواية: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ» أي تسليم المعارف فقط، وهذا أمر مشاهد في زماننا، وقد كانت مبادئه في زمن الصحابة. ففي الحديث أن رجلاً خَصَّ ابن مسعود -رضي الله عنه- دون أصحابه بالسلام، فقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: صدق الله ورسوله، ف قيل له: لِمَ قلت حين سلم عليك الرجل: صدق الله ورسوله؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ أَشْرَارِ السَّاعَةِ إِذَا كَانَتِ التَّحِيَّةُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ».

ولا يزال هذا الأمر في ازدياد، بل تجاوز حال بعض الناس من السلام على من يعرف دون من لا يعرف إلى ألا يرد السلام إلا على من يعرف، وسبب هذا غلبة الجهل بسنة النبي ﷺ.

وقد أمر النبي ﷺ بإفشاء السلام، وأخبر أنه سبب في شيوع المحبة، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَوْمِنُوا، وَلَا تَوْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشَوْا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

وقد كان ابن عمر -رضي الله عنه- كما في الموطأ يغدو على السوق، فلا يمرُّ بأحد إلا سلم عليه، وقال: إنما نغدو من أجل السلام، نسلم على من لقينا. (صاحب الأخبار) ينبغي أن تحرص على مصاحبة الأخيار ومفارقة الأشرار، فقد

قال سفيان: ليس شيء أبلغ في فساد رجلٍ وصلاحه من صاحب.
وقال مالك بن دينار لصاحب له: انظر كل جليس وصاحب لا تستفيد في دينك منه
خيراً، فانبذ عنك صحبتته.

أَنْتَ فِي النَّاسِ تُقَاسُ بِالَّذِي اخْتَرْتَ خَلِيلاً
فَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ تَعْلَمُوا وَتَنْلِ ذِكْرًا جَمِيلاً
صُحْبَةُ الْخَامِلِ تَكْشُو مِنْ يُؤَاخِيهِ خُمُولاً

لذا ينبغي انتقاء الأصحاب، قال عليه السلام: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل
طعامك إلا تقياً»، وقال عليه السلام: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل»،
قال أبو الوفاء بن عقيل: ما خالطت لَعَابًا قط، ولا عاشرتُ إلا أمثالي من طلبة
العلم.

وقال أبو الفتح البُستي في عنوان الحكم:

مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ مِنْهُمْ صَلٌّ وَثُعْبَانٌ
يقول: (مَنْ اسْتَنَامَ إِلَى الْأَشْرَارِ) أي سكن إليهم وصاحبهم (نَامَ وَفِي قَمِيصِهِ
مِنْهُمْ صَلٌّ وَثُعْبَانٌ) الصِّلُ: الحَيَّةُ التي يقولون: إنها لا ينفع فيها دواء من شدة سمها
القاتل، فما ظنك بمن نام وفي قميصه صَلٌّ وَثُعْبَانٌ؟!

فالأشرار لا يُصَحَّبُونَ، لأنهم يَسْحَبُونَ، وإنما يصاحب الأخيار.

(لا تُؤْذِ إِنْسَانًا) نهت الشريعة عن أن يؤذي الإنسان غيره، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا يشمل كل أذى بقولٍ أو فعل.

﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي من غير جناية منهم موجبة للأذى.

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ البهتان: أفحش الكذب والزور.

﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] أي ذنبًا ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة.

وقد حصر النبي ﷺ المسلم في من سلم منه المسلمون فلم يؤذهم، قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» فمن آذى غيره ولم يسلم منه إخوانه فلم يحقق الكمال الواجب في الإسلام، والذي يؤذي إخوانه يخشى عليه أن يأتي يوم القيامة مفلسًا لا حسنات له، قد أُعطيت الحسنات لمن آذاهم وطرحت عليه خطاياهم، قال ﷺ: «اتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

ثم خص الناظم الجار فقال: (أَخْصَّ الْجَارَ)؛ لأنه يعظم الإيذاء وتشتد العقوبة عليه إذا كان في حق من أوصى به النبي ﷺ كالجار، وقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ»، وقال ﷺ: «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقد قال رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ كَثَرَةِ صَلَاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةً يُذَكِّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَتَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ».

الأقط: اللبن الجامد المستحجر، والأثوار: جمع ثور، وهو القطعة من الأقط؛
فينبغي أن يحذر المسلم من أذية المسلمين عمومًا، ومن أذية من عظمت الشريعة
حقهم كالجار خصوصًا.

وَرَاعِ آدَابَ بُيُوتِ النَّاسِ (٢٢) كَغَضِّ طَرَفٍ وَكَالِاسْتِئْذَانِ

بيوت الناس لها حرمتها في الشريعة، لذلك ينبغي مراعاة آدابها، فمن ذلك
الاستئذان قبل الدخول، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٢٧] أي حتى تستأذنوا أهل هذه البيوت في
الدخول، وسمي الاستئذان استئناسًا؛ لأنه بالاستئذان تزول الوحشة من القادم،
ويحصل به الأنس، قال تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وصفة الاستئذان أن يقول: "السلام عليكم، أأدخل؟" فقد استأذن رجل على
النبي ﷺ فقال: «أَلَجُ؟» فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان
فقل له: قل: السَّلامُ عليكم أَدْخُلُ؟» فسمعه فقال: السَّلامُ عليكم أَدْخُلُ؟ فأذن له
النبي ﷺ عليه وسلَّم فدخل.

وينبغي إذا كان لا يعرف أن يُصرِّح باسمه.

قال جابر -رضي الله عنه-: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي دَيْنٍ كَانَ
عَلَى أَبِي، فَدَقَّقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: «أَنَا أَنَا»! كَأَنَّهُ كَرِهَهَا.
وإنما كرهه النبي ﷺ "أنا"، لأنها لا تُعرَّفُ بالمُستأذن.

ومن آداب البيوت: غض الطرف، فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْتِئْذَانُ
مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»، وقال ﷺ: «مَنْ اطَّلَعَ فِي بَيْتٍ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ

يَفْقَهُوا عَيْنَهُ».

وينبغي ألا يستقبل الباب عند الاستئذان، جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك، أو هكذا؛ فَإِنَّمَا الِاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ».

وَأَكْرَمِ الضَّيْفَ وَكُنْ مُبْتَسِمًا (٢٣) انْصُرْ أَخَاكَ إِثْرَنَ الْمُسْلِمِ

(وَأَكْرَمِ الضَّيْفَ) حث الناظم - وفقه الله - على إكرام الضيف، وهو مكرمة من مكارم الأخلاق، يدلُّ على سماحة النفس وكرم الطبع، والضيف في لسان الشرع - وهو الذي يجبُ على من نزل به أن يُكرمه - هو من نزل بك من غير بلدك، فهذا الذي قصدك من بلد آخر هو الواردُ في الأحاديث.

ويدلُّ لهذا ما ورد في بعض الأحاديث من التصريح بوصف السفر عند ذكر حق الضيف، فمن ذلك ما في الصحيحين عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: إِنَّكَ تَبْعُنَا، فَتَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يَقْرُونَنَا، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ».

ومعنى "لَا يَقْرُونَنَا": لَا يُقَدِّمُونَ لَنَا حَقَّ الضَّيْفِ.

وأما الزائر من البلد نفسه، أو من كان قادمًا من بلد آخر لكنه ليس قادمًا عليك، فلا شكَّ أن إطعامه وإكرامه يدخل في عموم الأمر بإطعام الطعام والإحسان إلى الناس، لكنه ليس هو الضيف الذي أوجب النبي ﷺ إكرامه وجعل له حقًا في مال المضيف.

وقد ندب النبي ﷺ الأمة إلى إكرام الضيف، وبين ﷺ أن ذلك من تمام الإيمان بالله واليوم الآخر، فعن أبي شريح العدوي - رضي الله عنه -: سَمِعْتُ

أُذْنَايَ، وَأَبْصَرْتُ عَيْنَايَ، حِينَ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ، قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ، وَالضَّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ» وفي لفظ لمسلم: «الضَّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ».

ومعنى قوله: «جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ»: أنه يكرمه ويتحفه ويخصه يوماً وليلة، أي يتكلف له في اليوم الأول بما يتسع له من برٍّ وإحسان، وفي اليوم الثاني والثالث يقدم ما بحضرته، وما كان بعد الثالث فهو صدقة ومعروف، إن شاء فعل وإن شاء ترك.

لكن لا ينبغي للضيف أن يُثقل على مضيفه ويُخرجَه ويضيق عليه، قال ﷺ: «وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ» أي لا يجوز له أن يقيم عنده حتى يضيق عليه.

ومن آداب الضيافة: طلاقة وجه المضيف وانبساطه وبشاشته، كما قال الشاعر:

أَصَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخَصِّبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
وَمَا الْخَصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

ومنها: المبالغة في الترحيب به حتى يشعر الضيف أن ما في المنزل ملك له،

كما قال الشاعر:

يَا ضَيْفَنَا لَوْ رُزْنَا لَوَجَدْنَا نَحْنُ الضُّيُوفُ وَأَنْتَ رَبُّ الْمَنْزِلِ

وقال في عشرة الإخوان:

وَأَعْمَلُ بِقَوْلِ الْأَوَّلِ الضَّيْفُ رَبُّ الْمَنْزِلِ
وَأَظْهَرُ الْإِيْنَسَا وَلَا تَكُنْ عَبَّاسَا

فَالْبَشْرُ وَاللَّطَافُ بِهِ خَيْرٌ مِنَ الضَّيَافَةِ

ومن ذلك: مؤانسته بالحديث معه، وإدخال السرور عليه بما يحب من الأخبار والطرف، وأن يسهر معه ولا ينام قبله، قال الشاعر:

لِحَافِي لِحَافُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعٌ
أُحَدِّثُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَكَلَّأَ عَيْنِي عَيْنُهُ حِينَ يَهْجَعُ

وكذلك ينبغي إذا فارقه الضيف أن يزوده بما ييسر من الطعام، ول بعضهم في هذا المعنى:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِيْنَا وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَا لَا

وإذا ودَّعه أظهر التأسف على وداعه، وأبدى الرغبة في بقاءه، وحثه على التريث وعدم العجلة.

(وَكُنْ مُبْتَسِمًا) مع الضيف كما سبق ومع غيره، فقد قال النبي ﷺ: «تَبَسُّمُكَ

فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»، وقال ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُلْقَى

أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ». في هذين الحديثين استحباب التبسم والبشاشة وطلاقة الوجه

عند اللقاء، وأن هذا من المعروف الذي ينبغي أن يُحرص عليه، لما فيه من إيناس

الأخ المسلم وإدخال السرور عليه ودفع الإيحاش عنه، وبهذا يحصل التآلف

والتقارب بين المسلمين، ومع هذه الفائدة العظيمة، فإن التَّبَسُّمَ لا يكلف الإنسان

شيئًا، فهو فعل هينٌ عظيمُ الأجرِ كثيرُ الفائدة، وفي هذا كمال هذه الشريعة، وأنها

جاءت بكل ما فيه صلاحُ الناس وجمع شملهم وإشاعة المحبة بينهم.

(انصُرْ أَخَاكَ) قال ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فقال رجلٌ: يا رَسُولَ

الله، أنصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أفرأيتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْبِزُهُ -

أَوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

فيجب على المسلم أن ينصر أخاه المظلوم، وذلك بأن يخلصه ممن ظلمه.
ويجب أيضًا أن ينصر أخاه الظالم، وقد بيّن النبي ﷺ أن نصر الظالم يكون بمنعه من الظلم، ووجه ذلك أن هذا الظلم سبب في أمور منها:

- حصول الإثم للظالم.

- وانحطاط مرتبته عند الخلق بظلمه.

- ذهاب حسناته؛ لأن المظلوم سيأخذ من حسناته يوم القيامة.

- العقوبة في الدنيا ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَّجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

- وقد يكون ظلمه سببًا لرفع البركة في ماله وولده.

- وقد يكون ظلمه سببًا لدعوة المظلوم عليه، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين

الله حجابٌ.

فَمَنْعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فِي الْحَقِيقَةِ نَصْرٌ لَهُ؛ لَأَنَّهُ سَبَبٌ فِي تَخْلِيصِهِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَكَارِهِ، فَهُوَ نَصْرٌ لَهُ عَلَى شَيْطَانِهِ وَعَلَى نَفْسِهِ.

(آثَرَنَّ الْمُسْلِمًا) الإيثار: أن يقدم الإنسان غيره على نفسه، وقد أثنى الله تعالى

على الأنصار بإيثارهم إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] أي ولو كان بهم حاجة وفاقية إلى ما

آثروا به من أموالهم على أنفسهم، وما من خصلة من خصال الخير ولا خلق من

كريم الأخلاق؛ إلا وقد علا نبينا ﷺ ذروة سنامه، وكان له منه أوفر الحظ

والنصيب، حين جاءت امرأة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ببردّة، وقالت: يا

رسول الله، إني نسجتُ هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وإنَّهَا إِزَارُهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْسُنِيهَا، آثَرَهُ بِهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى نَفْسِهِ مَعَ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا، وَكَسَاهَا إِيَّاهَا، فَقَالَ الْقَوْمُ لِلرَّجُلِ: مَا أَحْسَنْتَ، سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لَتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ الرَّاوي: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

وقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في الإيثار، في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيَّيْ طَعَامَكَ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكَ إِذَا أَرَادُوا عِشَاءً فَهَيَّاتِ طَعَامَهَا وَأَصْبَحْتِ سِرَاجَهَا وَنَوِّمْتِ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَُا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأُطْفِئَتْ فَجَعَلَ يُرِيَانَهُ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فِعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ولما طعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أراد أن يُدْفَنَ مع النبي ﷺ وأبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، فقالت عائشة - رضي الله عنها -: «كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي فَلَاؤُثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي».

وهذا جابر - رضي الله عنه - تزوج ثيبًا فقال له النبي ﷺ: «فَهَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ؟» فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ -يعني والده- هَلَكَ، وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ، أَوْ سَبْعَ، وَإِنِّي كَرِهْتُ أَنْ آتِيَهُنَّ، أَوْ أَجِيَهُنَّ بِمِثْلِهِنَّ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَجِيءَ بِامْرَأَةٍ تَقُومُ

عليهنَّ، وَتُصْلِحُهُنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ، أَوْ قَالَ لِي خَيْرًا**..

فآثر جابر -رضي الله عنه- مصلحة أخواته على حظ نفسه، وعلى ذلك سار سلف الأمة وصالحوها.

قالوا في ترجمة بشر بن الحارث: إنه ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث، فإنه أتاه رجلٌ في مرضه، فشكى إليه الحاجة، فنزع بشرٌ قميصه وآثره به، واستعار ثوبه، فمات في هذا الثوب المستعار، خرج من الدنيا وليس يملك شيئاً.

وقال هارون المستملي: لَقِيتُ أحمد ابن حنبل، فقلت: ما عندنا شيء، فأعطاني خمسة دراهم، وقال: ما عندنا غيرها.

وقال بعضهم: شاهدتُ الحافظ عبدالغني المقدسي في الغلاء بمصر، وهو ثلاث ليالٍ يؤثر بعشائه ويبيت طاوياً.

ومن فوائد الإيثار: دخول العبد في من أثنى الله عليهم وجعلهم من المفلحين، قال تعالى: **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [الحشر: ٩].

ومن فوائده: نيلُ ثواب أهل البرِّ ونيل الجنة، قال تعالى: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران: ٩٢] أي لن تنالوا ثواب أهل البرِّ، وفُسر البرُّ هنا بالجنة **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** [آل عمران: ٩٢] وسيجزى المنفقين والمؤثرين على أنفسهم في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُ كُنْ عَفِيفًا (٢٤) حَافِظٌ عَلَى الصَّحَّةِ كُنْ نَظِيفًا

(عَنْ كُلِّ مَا يَسُوءُ كُنْ عَفِيفًا) العِفَّةُ: كف النفس عن كل ما يُخالف الشرع والمروءة، فكل قبيح في الشرع أو في العرف، فإن العفة تقتضي التَّزَنُّ عنه.

وقد أمر الله تعالى بالتعفف، ومدح أهله، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتَّعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] أي ليطلب العفة عن الحرام والزنا من لا يستطيع الزواج لفقره إلى أن يُغنيه الله من فضله.

وقد أثنى الله تعالى على الذين يتعففون عن السؤال حتى يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى».

قال أيوب السخيتاني: لا يَنْبُلُ الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عما يكون منهم. وللعفة صور كثيرة، منها:

▪ العفة عما في أيدي الناس بترك مسألتهم، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي أَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا، وَاتَّكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شَيْئًا».

▪ العفة عن المأكَل الحرام، والمشرب الحرام.

▪ عفة اللسان والسمع والبصر واليد والرجل والبطن والفرج عن الحرام كما سبق في قوله: (صُنِ اللِّسَانَ وَاحْفَظِ الْجَوَارِحَ).

▪ عفة الجسد، بستر ما أمر الله بستره من العورات، وبالتزام النساء الحجاب.

ومن نماذج العفة المشرقة:

- عفة نبي الله يوسف -عليه السلام- حين ابتلي بما لا يصبر عليه إلا من صبره الله، مع قوة الدواعي إلى الوقوع في المعصية، فإن امرأة العزيز كانت ذات منصب وجمال، وكل واحدٍ منهما يدعو إلى إجابتها إلى طلبها، وهي غير ممتنعة ولا آبية بل هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغيت الرقباء، بل قد توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، وهو شاب عزب ليس له زوجة ولا سُرِّيَّة تكسِر ما ركبّه الله في طبع الرجل من الميل للمرأة، ثم هو في بلاد غربة، والغريب يتأتى له من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه، وزوجها لم يظهر منه من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، وإنما قال ليوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، وقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة غيرة الزوج من أقوى الموانع، والزوج لم تظهر منه غيرة.

ومع كل هذه الدواعي، فقد عفّ نبي الله يوسف -عليه السلام- عن الحرام، وآثر مرضاة الله، واختار السجن على الزنا، وعلم أنه لا يطيق صرْف ذلك عن نفسه، وأنه إن لم يعصمه ربه صبا إليهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

- وقد كان نبينا ﷺ أعفّ الناس، قال ﷺ: «إِنِّي لَا تَقْلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ الثَّمَرَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِأَكْلِهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً، فَأُلْقِيهَا».

- وهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- كان له غلام يُخْرِجُ له الخَراج -

وهو ما يضربُه السيد على عبده من مال يدفعه من كسبه - وكان أبو بكر يأكل من خراجِه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه! فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه.

- وقد ذكر ابن الجوزي - رحمه الله - في ذم الهوى، قصةً لفتى من العباد أحب جارية من أهل البصرة، فبعث يخطبها، فامتنعت عليه، وقالت: إن أردت غير ذلك فعلت. فأرسل إليها: سبحان الله، يا هذه أدعوك إلى الأمر الصحيح الذي لا عيب فيه ولا وزر، وتدعينني إلى ما لا يصلح ولا لك فيه عذر، فأرسلت إليه: قد أخبرتك بالذي عندي، فإن أردت فتقدم، وإن كرهت تأخر. فأنشد يقول:

أَسْأَلُهَا الْحَلَالَ وَتَدْعُ قَلْبِي إِلَى مَا لَا أُرِيدُ مِنَ الْحَرَامِ
كَدَاعِي آلِ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ وَهُمْ يَدْعُونَهُ نَحْوَ الْغَرَامِ
فَظَلَّ مُنْعَمًا فِي الْخُلْدِ يَسْعَى وَظَلُّوا فِي الْحَمِيمِ وَفِي السَّقَامِ

فلما علمت أنه امتنع من الفاحشة، أرسلت إليه: ها أنا بين يديك على الذي تحب، فكتب إليها: هيهات! لا حاجة لنا فيمن دعانا إلى المعصية ونحن ندعوه إلى الطاعة، لا خير في نفسٍ لا تدوم على الاستقامة. ثم أنشأ يقول:

لَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُرَاقِبُ رَبَّهُ * عِنْدَ الْهَوَى وَيَخَافُهُ أَحْيَانًا
حَجَبَ التَّقَى بَابَ الْهَوَى فَأَخُو التَّقَى * عَفَّ الْخَلِيقَةَ زَائِدُ إِيْمَانًا

ويكتسب العبد العفة بأمور، منها:

- تحقيق الإيمان وتقويته، فالإيمان منبع كل فضيلة وخلق كريم.

- الإكثار من الدعاء، وقد كان من دعاء نبينا ﷺ كما سبق: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى».

- مجاهدة النفس على ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ». ثم قال: (حَافِظٌ عَلَى الصَّحَّةِ) الصحة نعمة عظيمة من الله تعالى، فحقيق بمن رزقها أن يحافظ عليها، وقد قال النبي ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ».

فهذا إخبار من النبي ﷺ بأن نعمة الصحة مغبون فيها كثير من الناس فلا ينتفع بها، وفي ضمن ذلك الترغيب في اغتنام نعمة الصحة فيما يرضي الله تعالى، والتعريف بقدرها والحث على المحافظة عليها.

ولا يمتري أحد في وجوب المحافظة على نعمة الصحة؛ لذا شرع الله التداوي من الأمراض، قال ﷺ: «تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ».

والبدن مطية الروح، فإذا صح البدن، قويت الروح على السير إلى الله تعالى، كما قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: "إنما بدني مطيتي، فإن رفقت بها بلّغني، وإن لم أرفق بها لم تبلّغني".

ونعمة الصحة سيُسأل عنها العبد يوم القيامة، قال ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ» وذكر أربعة أشياء منها: «وَعَنْ جَسَمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». وللحفاظ على الصحة وسائل منها:

- الاعتدال وعدم الإسراف في المأكل والمشرب.
- المحافظة على الرياضة.
- النظافة، قال الناظم: (كُنْ نَظِيفًا) والنظافة من أهم أسباب الحفاظ على

الصحة، فإن الأمراض أكثر ما تنتشر بين الناس بسبب ترك النظافة، لذا شرع لنا الوضوء للصلاة، والغسل من الجنابة، واستعمال السواك لنظافة الفم، وخصال الفطرة، قال ﷺ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالْإِسْتِحْدَادُ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ».

وقد أثنى الله تعالى على أهل قباء لحرصهم على النظافة والطهارة، قال تعالى: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

حَافِظٌ عَلَى الْأَذْكَارِ فِي الصَّبَاحِ (٢٥) وَفِي الْمَسَاءِ تَحْظُ بِالْفَلَاحِ

الكتاب والسنة مليئان بالأدلة الدالة على فضل الذكر، ورفيع قدره، وعلو مكانته، وكثرة فوائده وعوائده على الذاكرين.

وقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- في الوابل الصيب أن في الذكر أكثر من مئة فائدة، ثم أخذ يعددها فذكر ما يزيد عن السبعين، كل فائدة منها كافية لتحريك الهمم وحفز النفوس إلى الاشتغال بالذكر.

وقد حث الناظم هنا على المحافظة على أذكار الصباح والمساء، وأوسع الأذكار المُقيدة، وأكثرها ورودًا في الأدلة حثًا عليها وترغيبًا فيها هي أذكار الصباح والمساء، لذا ينبغي للمسلم أن يحافظ عليها، وأن لا يُخِلَّ بها، فإنها الحصن الحصين، والحرز المكين الذي لا يُحرز العبد نفسه من عدوه إلا به، فإن كان يحفظها فذاك، وإن كان لا يحفظها فليقرأها من كتاب من كتب صحيح الأذكار حتى يحفظها.

ومحل أذكار الصباح من طلوع الفجر، والأحسن أن تكون من بعد صلاة الصبح، ويمتد ذلك إلى طلوع الشمس.

ومحل أذكار المساء من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس.

وفي الحديث قال ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلي من أن أعتق أربعة» على أن الأمر في ذلك واسع - إن شاء الله - فيما لو نسي العبد ذلك في وقته أو عرّض له عارض فلا بأس أن يأتي بأذكار الصباح بعد طلوع الشمس، وأن يأتي بأذكار المساء بعد غروبها.

لو قارنا بين رجلين: خرج كل واحد منهما في الصباح إلى دراسته أو إلى عمله، وقد أتى أحدهما بأذكار الصباح، ولم يأت بها الآخر.

الأول الذي أتى بأذكار الصباح أخبر النبي ﷺ أنه سيكون محفوظاً بإذن الله، ولن يضره شيء، قال ﷺ: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فيضره شيء».

وقد جاء في جامع الترمذي أن أبان بن عثمان رحمه الله - وهو راوي الحديث عن عثمان رضي الله عنه - أصابه طرف فألج وهو شلل يصيب أحد شقي الجسم - نسأل الله العافية - فجعل رجل منهم ينظر إليه، فقال له أبان: ما تنظر؟ أما إن الحديث كما حدثتك، ولكني لم أقله يومئذ ليُمضي الله علي قدره.

وثبت أنه: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عقرب لدغتي البارحة، فقال النبي ﷺ: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرْك».

وقد أورد الترمذي عقب الحديث عن سهيل بن أبي صالح أحد رواة أنه قال: «فَكَانَ أَهْلُنَا تَعَلَّمُوهَا فَكَانُوا يَقُولُونَهَا كُلَّ لَيْلَةٍ فَلِدَغَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُمْ فَلَمْ تَجِدْ لَهَا وَجَعًا».

فالذي أتى بأذكار الصباح أخبر النبي ﷺ أنه سيكون محفوظًا، ولن يضره شيء، أما الآخر الذي لم يأت بأذكار الصباح فقد فاتته هذه الفضيلة الأول لو مات من يومه قبل أن يمسي، فليبشر بأنه من أهل الجنة، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، قال ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وأما الآخر الذي لم يأت بأذكار الصباح فقد فاتته هذا الفضل. الأول في حرز من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، وقد حطت عنه خطاياها ولو كانت مثل زبد البحر، قال ﷺ كما في الصحيحين: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَانَ لَهُ عَدْلٌ عَشْرٍ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكُنَّ لَهُ حِرْرًا مِنَ الشَّيْطَانِ، سَائِرَ يَوْمِهِ إِلَى اللَّيْلِ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا أَتَى بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».

وهذا ليس مختصاً بوقتِ الصباح، لكن الإتيان بهذا الذكر في الصباح أفضل، لما في ذلك من المبادرة بالخير؛ وليحصل أجره من أول يومه، وحتى يكون له حرزاً من الشيطان من بداية اليوم، ولهذا أورده العلماء في جملة أذكار الصباح.

- وأما الآخر الذي لم يأت بأذكار الصباح، فما أعظم ما فاتته! وهكذا إلى آخر ما ورد في أذكار الصباح والمساء من الفضائل.

فما أعظم غنيمة من حافظ على أذكار صباحه ومساءه! وأيُّ خيرٍ فوّته على نفسه من أهملها!

وما أخرى من أمسك بزمام اليوم من أوله أن يسلم له يومه كله بإذن الله.

وقد أخرج الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع عن عمرو بن قيس أنه قال: وجدنا أنفع الحديث لنا ما نفعنا في أمر آخرتنا: من قال كذا، فله كذا.

وَيُنَبَّهُ هنا إلى مسألةٍ جليّة وهي أنه ينبغي أن يحرص الذاكرُ على حضور القلب، وتدبُّر معاني الأذكار النبوية، وقد كان بعض الصالحين لا ينفُتِلُ من أذكار صباحه ومساءه إلا وقد اختلطت دموعه بلحيته.

قال ابن القيم رحمه الله: وأفضل الذكر وانفعه ما واطأ القلب فيه اللسان، وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

إِذَا عَطَسْتَ فَاحْمَدَنَّ اللَّهَ (٢٦) وَشَمِّتْنِ مَنْ حَمِدَ إِلَهَ

هذان أدبان:

- الأول: حمدُ الله عند العطاس.

- والآخرُ تشميتُ من عطسَ فحمدَ الله.

والأصلُ في هذا قوله ﷺ: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ - أَوْ صَاحِبُهُ -: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَإِذَا قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمْ اللَّهُ وَيُصْلِحُ بِالْكُم».

في الحديث أن العاطس مأمورٌ بحمد الله تعالى بعد عَطاسه؛ لأنَّ العَطاسَ نعمةٌ من الله لخروج هذه الرياح المُحتقنة في أجزاءٍ من بدن الإنسان، ثم نعمةٌ أخرى وهي بقاء أعضاء بدنهِ على التَّامِّها وهيئتها؛ ولهذا يُحسُّ العاطسُ بالخفة والنشاط بعد عَطاسه، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعُطَّاسَ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ».

«يُحِبُّ الْعُطَّاسَ» لأنه دليلُ النشاط.

«وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ» لأنه دليلُ الكسل.

ولحمد العاطس ثلاثُ صيغٍ وردت في الأحاديث:

١- "الحمد لله".

٢- "الحمد لله رب العالمين".

٣- "الحمد لله على كل حال".

وقد صحح النووي في شرح مُسلم أن العاطس مخير بين هذه الألفاظ الثلاثة، وصيغة "الحمد لله" هي الواردة في الصحيحين، وقد حكم بعض العلماء على ما عداها بالشذوذ.

والحديثُ دليلٌ على أن من سمع العاطس يحمد الله، فهو مأمور بأن يقول له: يرحمك الله، وفي الحديث الآخر: «إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهُ، فَحَقُّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يُشَمِّتَهُ».

وفي الحديث الآخر: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» وفيه: «وإذا عطسَ فحمد الله فشمته» والمعنى: قل له: "يرحمك الله" أي أعطاك الله رحمةً يرجعُ بها ذلك العضو إلى حاله قبل العطاس من غير تغيير.

وقد ضبطَ فشمته بالشين وفسمته بالسين، وهما لغتان صحيحتان، والشين أعلى في كلامهم وأكثر.

■ إذا كان بالسين، فهو مأخوذ من السم، وهو القصد والطريق المستقيم، ويكون المعنى: رجع كل عضو إلى سمته الذي كان عليه، لأن العاطس ينحل كل عضو في رأسه وما يتصل به.

■ وإن كان بالشين، فمعناه: صان الله شواتمه، أي: قوائمه التي بها قوام بدنه عن خروجها عن الاعتدال.

وقوله: (وَشَمَّتَنُ مِنْ حَمْدِ الْإِلَهِ) ظاهرٌ في أن تشميت العاطس مشروعٌ إذا قال "الحمد لله"، وقد جاء هذا صريحًا في حديث أنس - رضي الله عنه - أنه قال: «عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَمَّتَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَمَّتْ هَذَا وَلَمْ تُشَمِّتْنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذَا حَمِدَ اللَّهَ، وَلَمْ تَحْمَدِ اللَّهَ».

وقد بوب عليه البخاري بقوله: باب لا يُشَمَّتُ العاطس إذا لم يحمد الله، وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمته، وإذا لم يحمد الله فلا تُشمته».

عَلَى الْيَمِينِ طَاهِرًا نَمُ بَاكِرًا (٢٧) وَكُنْ لِأَذْكَارِ الْمَنَامِ ذَاكِرًا

هذه أربعة آداب:

■ الأول: النوم على الجنب الأيمن لأن النبي ﷺ كان يحبُّ التيامن، ولأنه

أسرع إلى الانتباه.

■ **الثاني: النوم على طهارة** مخافة أن يموت في ليلته، وليكون أصدق لرؤياه، وأبعد من تلاعب الشيطان به في منامه وترويعه إياه، وقد دلّ على هذين الأدبين حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما- أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ». «فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ» هذا أدب النوم على طهارة.

«ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ» هذا أدب النوم على الجنب الأيمن.

■ **الثالث: أن ينام باكرًا** وقد كان النبي ﷺ يكره الحديث بعد صلاة العشاء في غير حاجة، والسهر في غير مصلحة.

وسبب كراهة السهر أنه يُخشى معه من غلبة النوم عن قيام آخر الليل، أو عن صلاة الصبح، ولأن السهر في الليل سبب للكسل في النهار عن مصالح الدين والدنيا.

والمكروه من ذلك: ما كان في الأمور التي لا مصلحة فيها، أما ما فيه مصلحةٌ وخير فلا كراهة فيه كمُدارسة العلم، ومُحادثة الضيف، ومُحادثة الرجلِ أهله وأولاده، ومُحادثة المُسافرين، والحديث في الإصلاح بين الناس.

وقد جاءت أحاديث صحيحةٌ ببعضه والباقي في معناه، وقد ترجم البخاريُّ بقوله: باب السمر مع الأهل والضيف وأخرج تحت حديث سَمْرِ أَبِي بَكْرٍ -رضي الله عنه- عند النبي ﷺ، ثم سَمَرِه عند أهله وضيفه لما رجع من عند النَّبِيِّ -صَلَّى الله عليه وسلَّم- بعد ما ذهب من الليل ما ذهب.

أما السمر لغير فائدة ولغير مصلحة فقد كرهه النبي ﷺ، وقد ذكر مالكٌ في

الموطأ أنه بلغه أن عائشة - رضي الله عنها - كانت ترسل إلى بعض أهلها بعد العتمة فتقول: ألا تُريحون الكُتَّابَ؟ أي الملائكة الكرام من كتابة الكلام الذي لا فائدة فيه.

ووصله ابن حبان في صحيحه عن عروة بن الزبير - رحمه الله - أنه قال: «سَمِعْتُ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - وأنا أَتَكَلَّمُ بعد العشاءِ الآخرة، فقالت: يا عُرَيُّ! - عُرَيُّ تصغير عروة مُرَحِّمًا - ألا تُريحُ كَاتِبِيكَ؟! فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَكُنْ يَنَامُ قبلها، ولا يَتَحَدَّثُ بعدها» أي بعد صلاة العشاء.

٤ - والأدب الرابع: أن يأتي بأذكار النوم التي كان نبيُّنا ﷺ يُحافظ عليها إذا أوى في الليل إلى فراشه لينام، فإن الإنسان عند نومه يكون غافلاً عما يحدث حوله؛ فإذا أتى بأذكار النوم لم يزل عليه من الله حافظٌ من أن يمسهُ في منامه مكروه أو يناله شرٌّ أو أذى أو يُصيبه شيءٌ من الهوام المؤذية حتى يُصبح. فإن كان يحفظها فذاك، وإن كان لا يحفظها فليقرأها كل ليلة من كتاب من كُتُب صحيح الأذكار حتى يحفظها.

مَمَّا يَلِي كُلِّ يَمِينٍ سَمٍّ (٢٨) فِي أَوَّلِ ثَمِّ أَحْمَدَنَ فِي الْخَتَمِ

هذه أربعة آداب:

١ - التسمية في افتتاح الأكل بأن يقول قبل أن يأكل: بسم الله.

وقد دل على هذا الأدب حديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - أنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا غلام، سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ».

فإن نسي أن يسمي في أول الطعام، فليقل: بسم الله أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ. قال ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ:

بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ».

٢- **الأكل باليمين** لحديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - السابق «وَكُلْ بِيَمِينِكَ»، وقال ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ» وفي هذا أبلغ التنفير وأشد التحذير من الأكل والشرب بالشمال.

٣- **أن يأكل مما يليه** لحديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه - «وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» وذلك أن الإنسان إذا أكل مما يلي غيره كان قد تعدى على ما ليس بحوزته، مع ما فيه من تقذر النفس مما خاضت فيه الأيدي، ولأن فيه إظهار الحرص والنهم، وسوء الأدب مع غيره.

وقد حمل العلماء هذا الحديث على ما إذا كان الطعام نوعاً واحداً، فإن كان أنواعاً مختلفة كأنواع الفاكهة، فلا بأس أن يأكل مما لا يليه.

ويُستثنى من هذا ما إذا عَلِمَ الآكُلُ رضا من يُشاركه، كالآكل مع زوجته وخادمه، فإذا تبين له رضاه فلا بأس بأكله مما لا يليه؛ لما ثبت في حديث أنس - رضي الله عنه - أَنَّ خِيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِبَطْعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسٌ - رضي الله عنه -: «فَدَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَأَيْتُهُ يَتَّبِعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالِي الْقَصْعَةِ» والدُّبَّاءُ نوع من القَرَع وهو اليقطين «قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمَئِذٍ».

وقد ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله: باب من تتبع حوالى القصعة مع صاحبه إذا لم يعرف منه كراهية، وكأن هذا فيه إشارة إلى الجمع بين حديث أنس - رضي الله عنه - وحديث عمر بن أبي سلمة - رضي الله عنه -، وفقه

البخاري في تراجمه، والحديث قد دل على أن أنسا قد أكل مع النبي ﷺ.

٤ - **ختم الأكل بالحمد**، في الحديث أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته أي طعامه أو إناءه، قال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرُ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ، رَبَّنَا**».

«**غَيْرُ مَكْفِيٍّ**» أي ما أكلناه غير كافٍ عما بعده، بل نعمك علينا مُستمرةٌ غير مُنقطعة.

«**وَلَا مُودَعٍ**» ليس آخر طعامنا.

وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «**إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**».

وقوله: (**ثُمَّ أَحْمَدَن فِي الْخَتَمِ**) يشمل شيئين:

الأول: ختم الأكل بدليل السياق فإنه قال:

مَمَّا يَلِي كُلِّ يَمِينٍ سَمٌّ (٢٨) فِي أَوَّلِ ثُمَّ أَحْمَدَن فِي الْخَتَمِ

والآخر: ختم كل عمل، لذا ختم الناظم بقوله:

أَحْمَدُهُ جَلَّ مُصَلًّى عَلَى (٢٩) نَبِيِّ أَرَبِّ نَظْمِي فَأَقْبَلَا

ختم نظمه بحمد الله والصلاة على نبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسؤال الله قبولَ نظمه، وهي من آداب الختم.

ونحن نختمُ مدارسنا بمثل ذلك، فنسأل الله تعالى أن يتقبل منا هذه المُنْدارسة، ومِنَ الناظمِ نَظْمَه، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرفَ عنا سيئها لا يصرفَ عنا سيئها إلا هو.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

